بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه.

نحمده تبارك وتعالى حمدًا يليق بجلاله ملء السموات وملء الأرض وملء ما شاء الله من شيء بعد.

نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فيقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٦]

ويقول سبحانه: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

ويقول سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩].

ويقول جل ذكره: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [محمد:٢٤].

فانطلاقًا من هذا، ولما يُحدثه القصص القرآني-بإذن الله-من عِبر وعِظات في قلوب أولي الألباب كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [يوسف:١١١] .

ولما تحمله تلك القصص من جميل المعاني التي يثبت الله بها الفؤاد كما قال تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ [هود:١٢٠].

ولكون ذكر مصاب الآخرين يهوِّن على الشخص مصابه، ويُذهب عنه

همومه وأحزانه، ويحمله على الصبر كما صبروا، إذ الله قال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

وقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾.

[الأنعام:٣٤]

وكذا ذِكر عبادة العابدين، وزهد الزاهدين، وصلاح الصالحين، ودعاء الداعين، وجهاد المجاهدين، وصبر الصابرين، وورع الورعين، كلُّ ذلك يحمل على التأسي بهم والسير على طريقهم وسلوك سبيلهم ومن ثمَّ قال تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [مريم:٤١].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ [مريم:٥١].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ﴾ [مريم:٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ﴾ [مريم:٥٦].

وأيضًا فقد قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء:٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء:٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء:٨٩].

فلهذا كلِّه ولغيره كذلك نتناول القصص القرآني-قصة بعد قصةٍ بالشرح والتفسير، والتأويل والبيان، فقصص الكتاب العزيز أحسن القصص، وأجمل القصص وأصح القصص، وأصدق القصص: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

يجد فيها المُبتلى ما يُصبِّره ويسلِّيه، إذ له أسوة في الأنبياء والمرسلين وأهل الصلاح!

يجد فيها المتَّهم البريء ما يُسري عنه فقد اتُّهم من هو خيرٌ منه، اتُّهم الصديق يوسف، والصديقة مريم، وأم المؤمنين-الصديقة بنت الصديق-عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا واتُّهم الكليم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وكلٌّ قد برأه الله عَزَّ وَجَلَّ ، وكانت العاقبة للتقوى.

يجد فيها المُعافى ما يحمله على شكر الله على نعمائه وحمده على واسع عطائه وجميل ستره وسوابغ نعمه.

فحقيقةً إن الكلام يطول والحديث لا ينقطع، والنفوس لا تملُّ بذكر ما في القصص القرآني من عبر وفوائد.

وبين أيدينا قصة من أجمل القصص القرآني قصة فيها عبرٌ وعظات، وأجمل السلوك وأحسن الآداب، فيها بيان لجميل المعتقد وصحيحه، بها تقوم الأخلاق وتهذب وتسمو النفوس وتُزكَّى القلوب قصة نبي الله وكليمه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- ذلكم النبي الذي اصطفاه الله على الناس برسالاته وبكلامه!!!
- ذلكم النبي الحييّ الكريم الوجيه البريء من كل عيب، السليم من كل نقصٍ صلوات الله وسلامه عليه.
- نبيٌّ من أولي العزم من الرسل عليه صلوات الله وسلامه أجمعين.
- نبيٌّ أمرنا الله عَزَّ وَجَلَّ بالاقتداء به إذ قد ذكره الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه الكريم في سورة الأنعام ضمن طائفة من الأنبياء وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].
- أكثر الأنبياء ذِكرًا في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ.
- أشبهت سيرته سيرة رسولنا الكريم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولقد كان رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتسلى بسيرته ويتصبر!!
- أُنزلت عليه التوراة فيها هدى ونور والصحف والألواح!!!
- أيده الله بالمعجزات العظيمة وأعطاه من المناقب الجليلة ما أعطاه.

الكلام في ذِكره ووصفه وفضائله ومناقبه وكرمه لا يأتي عليه الحصر، فسبحان من أنعم عليه وتفضل، وتبارك من رفع منزلته وأعلى قدره صلوات الله وسلامه على نبيه موسى عليه السلام.

هذه طائفة من قصصه مع بيان الحال قبل ولادته والتعريف به ومنشؤه في المهد، وحاله في شبابه وخروجه من مصر وسكناه بلاد مدين ثم رجوعه إلى مصر، وفي طريق الرجوع يكرم بأعظم كرامةٍ ويُوحى إليه ويكلمه الله تكليمًا، ويرجع إلى مصر لتبليغ الرسالة ولدعوة فرعون ويكون من أمرهما ما ذكره الله في كتابه ويحفظه الله وينجيه ويهلك عدوه.

ثم حاله مع بني إسرائيل المؤمنين به والعصاة منهم، وقصته عليه السلام مع الخضر، ومع السامري وقصة أصحاب البقرة في زمانه.

❁ قد أوردت كل هذا في هذا السِّفر الجليل المتعلق بسيرة نبي الله موسى عليه السلام وشيء من قصة أخيه هارون عليه السلام.

وأوردت الآيات المتعلقة بذلك كله مع تفسيرها ، وبيان معاني مفرداتها، فهي مئات الآيات، ويا هنيئًا له من اطَّلع عليها وتدبرها وتأملها واستنبط منها الفوائد وعمل بمقتضاها.

هذا، وقد ضمنت هذا السِّفر الجليل شيئًا من قصص بني إسرائيل.

قصة قارون-قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت-قصة طالوت وجالوت-قصة الذي آتاه الله الآيات فانسلخ منها-قصة أصحاب القرية المعتدين في السبت، إلى غير ذلك مما سيراه القارئ الكريم في ثنايا هذا الكتاب، أسال الله أن يجعله مباركًا ميمونًا.

وأقول وبالله التوفيق، وهذا العمل جزء من عملي في قصص الأنبياء عليهم الصلاة السلام، وقد أنجزت من ذلك قدرًا، وأسأل الله أن يتمم-بفضله وجوده وكرمه-على خيرٍ اللهم آمين.

ولا أطيل فللإطالة مقام آخر أوسع إن شاء الله.

أسأل الله أن يتقبل منا هذا العمل بقبول حسن وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم ألقاه، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، وأن يجازي مشائخنا وعلماءنا عنا خير الجزاء، وأن يتغمدهم بواسع رحمته، وأن ينور لهم قبورهم وأن يفسح لهم فيها.

كما أسأل الله أن يغفر لنا تقصيرنا وزلاتنا وخطأنا وعمدنا وكل ذلك عندنا ونستغفر الله ونتوب إليه.

هذا، ومن وجد خللًا أو خطأ فجزاه الله خيرًا إذا وفانا به، وقد قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] هذا وصلِّ اللهم على نبينا محمد وسلم.

والحمد لله رب العالمين.

كتبه

أبو عبد الله/ مصطفى بن العدوي شلباية

مصر – الدقهلية – منية سمنود

(١٠) أحمر أسود

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الفَصۡلُ الأوَّل

ومحتوياته

يحوى هذا الفصل ما يلي:

- التشابه بين سيرة نبينا محمد ﷺ وسيرة نبى الله موسى عليه السلام.
- استحباب التذكير بنبى الله موسى عليه السلام وقصته وسيرته.
- نسب موسى عليه السلام ومزيدٌ من التعريف به وبشيء من فضله ووصفه.
- بين يدى ميلاد موسى عليه السلام.
- بعض السبل التى سلكها فرعون لإضلال العباد واستعبادهم.
- مزيدٌ من وصف الحال فى مصر زمن موسى عليه السلام.
- ميلاد موسى عليه السلام وما أوحاه الله عز وجل إلى أم موسى.
- حال أم موسى بعد إلقاء ولدها فى اليم.
- قدر من حديث الفتون يتعلق بما سبق.
- قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشورى: ٢٦] وبيان كرم الله عز وجل ومزيد فضله على أم موسى وولدها.

(١٢) أحمر أسود

وجوه التشابه بين سيرة
نبينا محمد ﷺ وسيرة نبى الله موسى عليه السلام

أقول – وبالله التوفيق–: لقد أَشبهت سيرةُ نبيِّ الله موسى عليه السلام، وكذا حياتُهُ فى كثيرٍ من مراحلها سيرةَ نبينا محمد ﷺ وحياتَه، وابتُلِي نبينا محمد ﷺ بابتلاءاتٍ من نفس جنس الابتلاءات التى ابتُلِي بها نبى الله موسى ﷺ:

۞ ومن ثمَّ فقد نزل القرآن على رسول الله ﷺ وكثيرٌ من آياته تحمل التذكير بنبى الله موسى عليه السلام وتعددت بذلك الآياتُ في مكة والمدينةَ على السواء فجاء ذِكر موسى عليه السلام في السور المدنية كما جاء في السور المكية.

۞ ولقد كانَ النَّبيُّ ﷺ يَتَسَلَّى بسيرةِ نبي الله موسى عليه السلام ويتصبَّرُ بها، فقد كان يقول إذا أُوذي «**يرحمُ الله مُوسَى قد أُوذِي بأكثر من هذا فصبر**»[(١)].

۞ ولذا – والله أعلم– فإن طوائفَ الجن لما سمعوا القرآن من رسول الله ﷺ قالوا لقومهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

مع أن القرآن نزل من بعد عيسى عليه السلام أيضًا، وعيسى أقرب لرسول الله ﷺ من موسى في التأريخ.

وكذلك قال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ – لما قصَّ النبي ﷺ خبر ما رأى–: «هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى عليه السلام»[(٢)].

وذلك كما ذكرنا لمشابهة أوضاع النبي ﷺ لأوضاع نبي الله موسى، وأحواله لأحواله.

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٤٠٥)، ومسلم (حديث ١٠٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٣)، ومسلم (حديث ١٦٠).

فابتلاءاتٌ وصعابٌ، واختباراتٌ ومشاقٌّ منذ الطفولة وحتى الممات، ولكن في كل الأحوال ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ [الشرح:٥، ٦].

ولكن في كل الأحوال : «**النصر مع الصبر والفرج مع الكرب**».

۞ وُلد نبيُّنا محمد ﷺ يتيمًا، مات أبوه ولم يره.

ونبي الله موسى عليه السلام منذ أن حملت به أمُّه وهي في هموم وغموم وخوفٍ وقلقٍ من بطش الفراعنة به، ومن شفار الذباحين الذين كُلفوا من فرعون وآله بذبح أبناء الإسرائيليين ولكن حفظ الله موسى عليه الصلاة والسلام، بل وتربَّى موسى في بيت الفراعنة.

۞ وكذلك قيض الله لنبينا محمدٍ ﷺ من يرعاه ويحفظه بإذن الله ويدافع عنه وهو عمه أبو طالب الذي عاش كافرًا ومات كافرًا أيضًا.

وكذلك قيض الله لموسى عليه السلام مَن يقوم بخدمته ويضمُّهُ إلى بيته، وهو فرعون، أكبر طاغية عُرِف في التاريخ.

۞ ابْتُلِي النبي محمد ﷺ بعد البعثة بعُتاةٍ وطغاةٍ وفَجَرَةٍ وأشرارٍ، كأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأميّة بن خلف، ووصفوا النبيَّ الأمين محمد عليه الصلاة والسلام بالسحر والكهانة والشعر والكذب والافتراء والجنون!!

وكذلك ابتلي نبي الله موسى بهؤلاء الأشرار المفسدين كفرعون وهامان وقارون، فقالوا عنه: ساحر، كذَّاب!! وقال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]!!

وهكذا يُبتلى أهل الإيمان بمن يكذب عليهم ويفتري، ويبغي عليهم ويتطاول، وينال من عرضهم، ويقذف بالغيب من مكان بعيد.

ولكن ماذا بعد هذا؟ وماذا مع هذا ؟ دائمًا ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

[الأعراف:١٢٨]

فنبذ فرعون وجنوده في اليمِّ، وأُلقي أبو جهلٍ ومن معه بعد قتلهم في قَلِيبٍ خبيثٍ – وهو قليب بدر – وهم جيفٌ نتنة.

❁ وكما أن الله قال في شأن فرعون: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ [يونس:٩٢]، فكذلك يقف النبي ﷺ على قليب بدر وينادي:

«**يا أبا جهل بن هشام، يا أميّة بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربُّكم حقًّا، فإني قد وجدتُ ما وعدني ربي حقًّا**»(١).

ودائمًا وأبدًا لا يُفلح الظالمون!!

❁ وكما أن نبي الله موسى خرج من بلاده خائفًا يترقب، فقد أُخرج النبيُّ ﷺ من مكة أيضًا.

وكما أن الله سبحانه وتعالى تفضَّل على نبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومنَّ عليه وعلى من آمن به من قومه، وورث هو وقومُه جناتٍ وعيونٍ، وكنوزٍ ومقامٍ كريمٍ، ونعمةٍ كان فيها غيرهم فاكهين.

فكذلك نبينا محمد ﷺ فتح الله عليه مكة، فدخلها فاتحًا آمنًا مطمئنًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ...﴾ [الفتح:١].

ولذلك نرى في آخر سورةِ القصص قول الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص:٨٥] أي: إلى مكة(٢).

فكما أنَّا رددنا موسى فسنردُّك يا محمد إلى مكة فاتحًا وكذا قال عددٌ من المفسرين. وكما أن الرسول ﷺ وُوجِهَ بأصحاب الأموال الذين حاربوا دعوته بأموالهم كما قال تعالى حاكيًا عن بعضهم: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴾ [البلد:٦] أي: مالاً كثيرًا في عداوة النبي ﷺ ودعوته.

---

(١) مسلم (٢٨٧٤).

(٢) وقال بعض العلماء في معنى قوله تعالى: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص: ٨٥] إلى الله سبحانه وتعالى بعد أن تموت، وقيل أيضًا: لرادك إلى الآخرة، والله أعلم.

❁ وكمـا قـال تعـالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾

[الأنفال:٣٦]

فكذلك ابتلي نبي الله موسى بقارون الذي كانت مفاتحه تنوء بالعُصبة أولي القوّة، وابتلي ببغْي قارون وافتراء قارون، ولكن ما العاقبة؟ خسف الله بقارون وبداره الأرض، وما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين.

❁ ومن عجيب الأمر: أن يبتلى النبيُّ ﷺ بقريبٍ له يحارب دعوته، ويمشي خلفه يصِفه بالكذب ويتهمه بالجنون ألا وهو : عمه أبو لهبٍ.

ويبتلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا بقارون الذي هو من قوم موسى وقيل: هو ابن عمه.

فياعجبًا؛ كيف يأتي البلاء من الأقرباء؟

وكيف يأتي الافتراء من العشائر؟!

❁ ابتلي النبي ﷺ برأس النفاق: عبد الله بن أُبي بن سلول، ولابن سلول أتباعٌ!!

كما ابتلي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالسامريِّ الكذَّاب، وللسامري أتباعٌ!

❁ أوذي النبي ﷺ أشدَّ الأذى من أهل الإفك والافتراء، وطعنوا في زوجته الكريمة الشريفة السيدة الطاهرة العفيفة أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

كما أوذي موسى، واتُّهم ووُصف بما لا يليق أن يوصف به رجل من عوام الناسِ، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من أولي العزم من الرسل الكرام، ولكن برَّأ الله سبحانه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في آيات تتلى في المحاريب وتحفظ في الصدور وتسطر في المصاحف، ألا هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ...﴾ [النور:١١].

وهكذا ينجي الله المتقين، ويُبرئ الله المؤمنين.

وفي المقابل يُلحق ربنا بالبغاة الأشرار ما هم له أهل، فالخبيثات للخبيثين

والخبيثون للخبيثات.

۞ وكما أن موسى عليه السلام قابلتْه الصعابُ والمشاقُّ والعنادُ من بني إسرائيل، فقد قُوبل نبينا محمد ﷺ بذلك من بني إسرائيل أيضًا[1]، ومن أهلِ النفاقِ كذلك.

فقد جاء موسى بالبينات واطَّلع بنو إسرائيل على ذلك، وأنجاهم الله من عدوهم، وفلق الله لهم البحر فكان كل فرق كالطود العظيم، وأغرق الله فرعونَ وآله أمام أعين الإسرائيليين وما هو إلا أن جاوزوا البحرَ، فأتوْا على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]

فسبحان الله، جاء اليهود أيضًا إلى نبينا محمد ﷺ وسألوه مسائل لا يعلمها إلا نبي، فأجابهم عليها خيرَ إجابةٍ، إجابة بوحي من السماء، فأقرُّوا بصحتها، ومع ذلك عاندوا وكفروا – والعياذ بالله.

۞ وكما أن الإسرائيليين سلكوا سبيل التخذيل لموسى عليه السلام ، إذ قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة:٢١]، فانظر ماذا قال الإسرائيليون لنبيهم الكريم موسى عليه الصلاة والسلام، وقد أنجاهم الله على يديه: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة:٢٢].

وقالوا أيضًا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤] ونحو هذا المسلك من مسالك التخذيل سَلَكه أهلُ النفاقِ مع نبينا محمد ﷺ ، فرجع عبد الله بن أُبي بن سلول يومَ أُحُدٍ بثُلُثِ الجيش لتخذيل أهل الإيمان[2] أمام أهل الكفر والطغيان، ولكن دائمًا العاقبة للتقوى.

---

(١) وهم يهود المدينة في زمانه ﷺ.

(٢) انظر كتابنا: «التسهيل»: تفسير سورة النساء عند قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ ففيها شيءٌ حول هذا. [النساء:٨٨].

نصر الله أنبياءه وأولياءه وخذل ربُّ العالمين أعداءَه وأعداءَ المرسلين.

۞ ثم تأمل مقولة نبي الله موسى عليه السلام، والبحر أمامه والعدو من خلفه، وأصحابه يقولون: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ وهو عليه السلام يقول لهم: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٠، ٦١].

فسلَّمه الله ونجَّاه، وحفظه الله ورعاه وكذا فانظر إلى مقولة نبينا محمد ﷺ لأبى بكر، وهما فى الغار، وأهل الكفر وقوفٌ على باب الغار، وأبو بكر رضي الله عنه يقول: يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا، والرسول ﷺ يقول له: «**يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما**».

ويقول تعالى ذكره: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠].

فسبحان الله الكريم، وسبحان الله العظيم، وسبحان الله الرحيم سبحانه له الأسماء الحسنى يحفظ أولياءه ويكرمهم وينجيهم ويسلمهم.

۞ لقد اشتد الحصار وضاق على النبي محمد ﷺ وأصحابه يوم الخندق، وظن البعض بالله الظنونا.

وقد اشتد الخناق على أصحاب موسى عليه السلام يوم أن تبعهم فرعون، وأصبح ليس أمامهم إلا البحر، والعدو من خلفهم فقال أصحاب موسى: إنا لمدركون.

وقد جعل الله للجميع فرجًا ومخرجًا والحمد لله رب العالمين.

ولقد جعل الله عز وجل لموسى عليه السلام وزيرًا من أهله وهو هارون عليه السلام.

وقد قال النبي ﷺ لعلي: «**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي**».

۞ وفي الختام:

فإن الله سبحانه يجعل موتة نبيه محمد ﷺ في المدينة وليست ببلدته التي وُلد فيها، ليست بمكة البلد الحرام، وكذلك يموت موسى قريبًا من الأرض المقدسة رمية بحجرٍ، فسبحان الله، تشابهتْ سيرتهما، وتشابهتْ حياتُهما، وتشابهتِ الابتلاءاتُ التي ابتليا بها عليهما صلوات الله وسلامه.

فهكذا أشبهت سيرةُ نبينا محمدٍ ﷺ سيرةَ نبي الله موسى عليه السلام، ومِن ثَمَّ فقد تكرر ذكر قصة موسى، ونزلت سورٌ مدنية ومكيّة بذلك، وذلك - والله أعلم - لأن نبينا محمدًا ﷺ لاقى في مكة من التعب والعناء والجهد من أئمة الكفر نحو الذي لقيه موسى من فرعون وهامان وقارون وكذلك لاقى نبينا محمد ﷺ بالمدينة من العناء والجهد مع اليهود وأهل النفاق نحوًا من المعاناة التي عاناها موسى عليه السلام مع بني إسرائيل ونحو ذلك يواجهه الدعاة إلى الله.

فَمِنْ ثَمَّ؛ لزمنا تدبر قصة موسى عليه السلام وسيرة نبينا محمد ﷺ نلتمس من ذلك كله الزاد!

ونتعلم من ذلك كله الصبر!

ونستلهم العون من الله أولاً وآخرًا.

والتوفيق بالله وحده.

استحباب التذكير بنبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقصته وسيرته بل والأمر بذلك

كما سلف فقد أمر الله عَزَّ وَجَلَّ بذكر قصص الأنبياء عليهم السلام وحثَّ على ذلك ورغَّب فيه، فقد قال جلَّ ذكره: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

[الأعراف: ١٧٦]

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١] إلى غير ذلك من الآيات.

وجاء التنصيص على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١].

❁ ولما ذَكَرَ النبيُّ ﷺ قصة موسى والخضر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وبلغ قول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للخضر: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي﴾ [الكهف: ٧٦]، قال رسول الله ﷺ: «**وددنا أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ صبر حتى يقص الله علينا من أخبارهما**»(١).

هذا ولكون سيرة رسول الله ﷺ أشبهت سيرة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد ذكَّر به رسول الله ﷺ حتى يتسلى به ويتصبر كما سبق.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان بعض أسباب التذكير بسيرة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

وكثيرًا ما يذكر الله تعالى قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فرعون في كتابه العزيز؛ لأنها من أعجب القصص، فإن فرعون حذر من موسى كل الحَذَر، فسخره القدر أن رَبَّى هذا الذي يحذر منه على فراشه ومائدته بمنزلة الولد، ثم ترعرع وعقد الله له سببًا أخرجه من بين أظهرهم، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده ويرجع إليه، هذا ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة

---

(١) سيأتي تخريجه إن شاء الله.

والسلطان، فجاءه برسالة الله، وليس له وزير سوى أخيه هارون عليهما السلام، فتمرد فرعون واستكبر وأخذته الحمية، والنفس الخبيثة الأبية، وقوى رأسه وتولى بركنه، وادعى ما ليس له، وتجهرم على الله، وعتا وبغى وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل، والله تعالى يحفظ رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون، ويحوطهما بعنايته، ويحرسهما بعينه التي لا تنام، ولم تزل المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئًا بعد شيء، ومرة بعد مرة، مما يبهر العقول ويدهش الألباب، مما لا يقوم له شيء، ولا يأتي به إلا من هو مؤيد من الله ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨]، وصمم فرعون وملؤه -قبحهم الله- على التكذيب بذلك كله، والجحد والعناد والمكابرة، حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

ذكر الله سبحانه قصة السحرة مع موسى عليه السلام في سورة الأعراف، وقد تقدم الكلام عليها هناك. وفي هذه السورة، وفي سورة طه، وفي الشعراء؛ وذلك أن فرعون -لعنه الله- أراد أن يتهرج على الناس، ويعارض ما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين، بزخارف السحرة والمشعبذين، فانعكس عليه النظام، ولم يحصل له ذلك المرام، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٦-٤٨] فظن فرعون أنه يستنصر بالسحار، على رسول عالم الأسرار، فخاب وخسر الجنة، واستوجب النار.

نَسَبُ موسى ﷺ

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

وهو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم عليهم السلام.

قلت (مصطفى): كذا ذكر الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ أما قوله: (وهو موسى بن عمران) فهذا متفق عليه وعلى صحته.

وكذا كون نسبه ينتهي إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم فمتفق عليه أيضًا فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إسرائيلي، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام جميعًا.

أما قوله: (ابن قاهث بن عازر بن لاوي) فلا أعلم له مستندًا إلا ما ذكره الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ فالعلم عند الله تعالى.

ومن الدليل على أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من ذرية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ...﴾ [الأنعام: ٨٣، ٨٤].

فقوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ من أهل العلم من قال: أنها عائدة على نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وليست بعائدة على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وذلك لقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا﴾ ولوط ليس من ذرية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وانتصر الطبري لذلك بقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ﴾، و«الهاء» التي في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾، من ذكر نوح. وذلك أن الله تعالى ذكره ذكر في سياق الآيات

(١) قصص الأنبياء (ص ٣٣٧).

التي تتلو هذه الآية لوطًا فقال: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. ومعلوم أن لوطًا لم يكن من ذرية إبراهيم صلى الله عليهم أجمعين. فإذا كان ذلك كذلك، وكان معطوفًا على أسماء من سمينا من ذريته، كان لا شك أنه لو أريد بالذرية ذرية إبراهيم، لما دخل يونس ولوط فيهم. ولا شك أن لوطًا ليس من ذرية إبراهيم، ولكنه من ذرية نوح، فلذلك وجب أن تكون «الهاء» في «الذرية» من ذكر نوح.

فتأويل الكلام: ونوحًا وفقنا للحق والصواب من قبل إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وهدينا أيضًا من ذرية نوح، داود وسليمان.

و«داود»، هو داود بن إيشا و«سليمان» هو ابنه: سليمان بن داود، و«أيوب»، هو أيوب بن موص بن رزاح بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم، و«يوسف»، هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، و«موسى»، هو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث ابن لاوي بن يعقوب و«هارون»، أخو موسى.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ أي: وهدينا من ذريته ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ الآية، وعود الضمير إلى «نوح»؛ لأنه أقرب المذكورين، ظاهر لا إشكال فيه. وهو اختيار ابن جرير، وعوده إلى «إبراهيم»؛ لأنه الذي سيق الكلام من أجله حسن، لكن يشكل على ذلك «لوط»، فإنه ليس من ذرية «إبراهيم»، بل هو ابن أخيه ماران بن آزر؛ اللهم إلا أن يقال: إنه دخل في الذرية تغليبًا، كما في قوله تعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣] فإسماعيل عمه، ودخل في آبائه تغليبًا.

وكما قال في قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ [الحجر: ٣٠، ٣١] فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسجود، وذم على المخالفة؛ لأنه كان قد

تشبه بهم، فعومل معاملتهم، ودخل معهم تغليبًا، وكان من الجن وطبيعتهم النار والملائكة من النور.

وهارون هو أخو موسى عليهما السلام:

❁ قال موسى عليه السلام: ﴿هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾.

[طه:٣٠-٣٢]

وقال تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وقال هارون لموسى عليهما السلام: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ [طه: ٩٤](١).

التعريف بإسرائيل عليه السلام(٢):

إسرائيل هو يعقوب ﷺ، وقد نقل الشوكاني الاتفاق على ذلك(٣)، وسيأتي لذلك مزيد في آل عمران إن شاء الله.

أما إسرائيل فذهب بعض العلماء إلى أنه اسم كسائر الأسماء، ومنهم من قال: هو مركب من إسر بمعنى (عبد) وإيل بمعنى (الله) فعليه فإسرائيل هو عبد الله كما أن جبرائيل عبد الله، وميكائيل كذلك، وإسرافيل كذلك...، والله تعالى أعلم.

---

(١) وليس معنى هذا أنه أخوه لأمه فقط، بل ذكر ذلك ترقيقًا لقلبه، والله أعلم.

(٢) وذلك لأن موسى عليه السلام إسرائيلي.

(٣) انظر فتح القدير للشوكاني.

موسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل

قـــال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

❁ وفي حديث الشفاعة ذكر النبي ﷺ ذهاب الناس إلى آدم ثم إلى نوح ثم إلى إبراهيم ثم إلى موسى ثم إلى عيسى عليهم الصلاة والسلام.

وهذا مشعرٌ بأن الأنبياء المذكورين من بني آدم عليهم السلام هم أولو العزم من الرسل.

❁ وكـذا قولـه تعـالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[الشورى:١٣]

وقال الله عز وجل لرسوله محمد ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.

[الأحقاف:٣٥]

وكان النبي ﷺ يقول: «رحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

وهذا مشعرٌ أيضًا بأن موسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل والله أعلم.

❁ الأخبار الواردة في وصف نبي الله موسى عليه السلام:

قـال الإمـام البخـاري رحمه الله[١]: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى، أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيَّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي: «رَأَيْتُ مُوسَى: وَإِذَا هُوَ رَجُلٌ ضَرْبٌ رَجِلٌ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ[٢]، وَرَأَيْتُ عِيسَى، فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ رَبْعَةٌ أَحْمَرُ، كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ

---

(١) البخاري (٣٣٩٤)، ومسلم (١٦٥).

(٢) وقوله في حديث أبي هريرة: «رَأَيْتُ مُوسَى: وَإِذَا هُوَ رَجُلٌ ضَرْبٌ» بفتح المعجمة وسكون الراء بعدها موحدة أي نحيف.

=

دِيمَاس، وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ بِهِ، ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ: فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ وَفِي الآخَرِ خَمْرٌ، فَقَالَ: اشْرَبْ أَيَّهُمَا شِئْتَ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُهُ، فَقِيلَ: أَخَذْتَ الفِطْرَةَ أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ».

وقال البخاري أيضًا[(١)]: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا العَالِيَةِ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَمِّ نَبِيِّكُمْ - يَعْنِي: ابْنَ عَبَّاسٍ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لاَ يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى». وَنَسَبَهُ إِلَى أَبِيهِ، وَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ، فَقَالَ: «مُوسَى آدَمُ، طُوَالٌ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ»[(٢)]، وَقَالَ: «عِيسَى جَعْدٌ مَرْبُوعٌ» وَذَكَرَ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ، وَذَكَرَ الدَّجَّالَ.

۞ تلخيص ما جاء في وصف نبي الله موسى ﷺ:

ومما سبق يتلخص وصف نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في الآتي:

أولاً: أنه طويل عَلَيْهِ السَّلَامُ لكونه شبِّه برجال الأزد (أزد شنوءة) وهم معروفون بالطول.

= قوله: «رجل» بفتح الراء وكسر الجيم أي دهين الشعر مسترسله، وقال ابن السكيت: شعر رجل أي غير جعد.

قوله: «كأنه من رجال شنوءة» بفتح المعجمة وضم النون وسكون الواو بعدها همزة ثم هاء تأنيث: حي من اليمن يُنسبون إلى شنوءة وهو عبد الله بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد، ولقب شنوءة لشنآن كان بينه وبين أهله، والنسبة إليه شنوئي بالهمز بعد الواو وبالهمز بغير واو، قال ابن قتيبة : سمي بذلك من قولك رجل فيه شنوءة أي التقزز بقاف وزايين التباعد من الأدناس، قال الداودي: رجال الأزد معروفون بالطول. انتهى. ووقع في حديث ابن عمر عند المصنف بعد «كأنه من رجال الزط» وهم معروفون بالطول والأدمة.

(١) البخاري (٣٣٩٥)، ومسلم (٢٣٧٧).

(٢) قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ (فتح الباري): وقوله: «فقال موسى آدم طوال» زعم ابن التين أنه وقع هنا «آدم جسيم طوال» ولم أر لفظ، «جسيم» في هذه الرواية. وقوله: «آدم» بالمد أي أسمر، و«طوال» بضم المهملة وتخفيف الواو.

ثانيًا: أنه أقرب إلى النحافة، وذلك من قوله ﷺ في شأنه إنه (ضَرْبٌ) أي نحيف.

ثالثًا: أن شعره مسترسل (ليس بالجعد) دهين أي كأنه مدهون، وذلك لقوله ﷺ: (رَجل) أي: مترجل الشعر ، أي: مسترسل الشعر دهين.

رابعًا: أنه أسمر اللون، وذلك مأخوذٌ من وصفه بأنه (آدم) أي أسمر.

خامسًا: ليست به آفة، وقد قال تعالى في شأنه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

سادسًا: محبوبٌ عليه السلام، يحبه من رآه، وذلك من قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه: ٣٩].

سابعًا: إنه قويٌّ؛ لقول المرأة الصالحة لأبيها الصالح: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] والله أعلم.

وموسى عليه السلام هو كليم الله عز وجل(١).

❁ **قال تعالى:** ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤].

❁ **وقال تعالى:** ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]

❁ **وقال تعالى:** ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ ﴾. [البقرة: ٢٥٣]

والإجماع منعقد على أنه موسى عليه السلام.

❁ **وقال تعالى:** ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى ﴾. [الأعراف: ١٤٤]

---

(١) وسيأتي لذلك فصلٌ كاملٌ إن شاء الله.

نبي الله موسى عليه السلام يرعى الغنم

قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ١٧، ١٨]

قال الإمام البخاري رحمه الله(١): حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ يُونُسَ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَجْنِي الكَبَاثَ، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**عَلَيْكُمْ بِالأَسْوَدِ مِنْهُ، فَإِنَّهُ أَطْيَبُهُ**» قَالُوا: أَكُنْتَ تَرْعَى الغَنَمَ؟ قَالَ: «**وَهَلْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ رَعَاهَا**»(٢).

---

(١) البخاري (٣٤٠٦).

(٢) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله (فتح الباري): وَقَعَ فِي بَعْضِ طُرُقِ هَذَا الْحَدِيثِ وَلَقَدْ بُعِثَ مُوسَى وَهُوَ يَرْعَى الْغَنَمَ وَذَلِكَ فِيمَا أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ طَرِيقِ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ نَصْرِ بْنِ حَزْنٍ قَالَ افتخر أهل الإبل والشاةِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بُعِثَ مُوسَى وَهُوَ رَاعِي غَنَمٍ**» الْحَدِيثَ وَرِجَالُ إِسْنَادِهِ ثِقَاتٌ وَيُؤَيِّدُ هَذَا الَّذِي قُلْتُ أَنَّهُ وَقَعَ فِي رِوَايَةِ النَّسَفِيِّ بَابٌ بِغَيْرِ تَرْجَمَةٍ وَسَاقَ فِيهِ حَدِيثَ جَابِرٍ وَلَمْ يَذْكُرْ مَا قَبْلَهُ وَكَأَنَّهُ حَذَفَ الْبَابَ الَّذِي فِيهِ التَّفَاسِيرُ الْمَوْقُوفَةُ كَمَا هُوَ الْأَغْلَبُ مِنْ عَادَتِهِ وَاقْتَصَرَ عَلَى الْبَابِ الَّذِي فِيهِ الْحَدِيثُ الْمَرْفُوعُ وَقَدْ تَكَلَّفَ بَعْضُهُمْ وَجْهَ الْمُنَاسَبَةِ وَهُوَ الْكِرْمَانِيُّ فَقَالَ وَجْهُ الْمُنَاسبَة بَينهمَا أَن بني إِسْرَائِيل كَانُوا جُهَّالًا مستضعفين فَفَضَّلَهُمُ اللهُ عَلَى الْعَالَمِينَ وَسِيَاقُ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَكَذَلِكَ الْأَنْبِيَاءُ كَانُوا أَوَّلًا مُسْتَضْعَفِينَ بِحَيْثُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَرْعَوْنَ الْغَنَمَ انْتَهَى وَالَّذِي قَالَهُ الْأَئِمَّةُ إِنَّ الْحِكْمَةَ فِي رِعَايَةِ الْأَنْبِيَاءِ لِلْغَنَمِ لِيَأْخُذُوا أَنْفُسَهُمْ بِالتَّوَاضُعِ وَتَعْتَادَ قُلُوبُهُمْ بِالْخَلْوَةِ وَيَتَرَقَّوْا مِنْ سِيَاسَتِهَا إِلَى سِيَاسَةِ الْأُمَمِ وَقَدْ تَقَدَّمَ إِيضَاحُ هَذَا فِي أَوَائِلِ الْإِجَارَةِ وَلَمْ يَذْكُرِ الْمُصَنِّفُ مِنَ الْآيَاتِ بِالْعِبَارَةِ وَالْإِشَارَةِ إِلَّا قَوْلَهُ: ﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٣٩] وَلَا شَكَّ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٠] إِنَّمَا ذُكِرَ بَعْدَ هَذَا فَكَيْفَ يُحْمَلُ عَلَى أَنَّهُ أَشَارَ إِلَيْهِ دُونَ مَا قَبْلَهُ فَالْمُعْتَمَدُ مَا ذَكَرْتُهُ وَنَقَلَ الْكِرْمَانِيُّ عَنِ الْخَطَّابِيِّ قَالَ أَرَادَ أَنَّ اللهَ لَمْ يَضَعِ النُّبُوَّةَ فِي أَبْنَاءِ الدُّنْيَا وَالْمُتْرَفِينَ مِنْهُمْ وَإِنَّمَا جَعَلَهَا فِي أهل التَّوَاضُع كرعاة الشَّاة وَأَصْحَابِ الْحِرَفِ.

بين يدي ميلاد موسى ﷺ

أحوال مصر وأهلها في ذاك الزمان:

قد كان الإسرائيليون (بنو إسرائيل) يسكنون مصر منذ أن دعاهم يوسف عليه السلام إليها إذ كان عزيزًا على مصر، وقال لإخوته: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣]، فجاء يعقوب عليه السلام وأهل بيته جميعًا إلى مصر فاستوطنوها وتكاثروا فيها إلى أن جاء زمن نبي الله موسى عليه السلام، وكان يحكم مصر آنذاك فرعون الطاغية الذي ادعى الإلهية والربوبية، فكان يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

والظاهر - والعلم عند الله- أن الإسرائيليين لم يقرّوه على ذلك فقد أوصاهم يعقوب عليه السلام «أوصى بنيه» بقوله: ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] وكان أبناؤه قد أعطوه العهود على الإسلام.

قال الله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ البقرة: ١٣٣].

۞ ويبدو -والعلم عند الله- أن الإسرائيليين قد استمسك كثيرٌ منهم بذلك، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

۞ ومن ثمَّ حاربهم فرعون واستعبدهم وسامهم سوءَ العذاب يُذبح الأبناء ويستحيي النساء، وكذا استعبدهم لكونهم (بنو إسرائيل) فأثار نعرةً قومية

وعصبيةً جاهليةً ضدهم وسخَّر رجالهم وشبابهم في أشقِّ الأعمال وأشدِّها امتهانًا وإذلالًا، ولخشيته من كثرة بني إسرائيل وزوال ملكه على أيديهم طفق يُذبح الأبناء فلما خشي من انقراضهم - على ما قيل - طفق يُذبِّح المواليد من بني إسرائيل عامًا ويترك المواليد العام الآخر.

❁ بل وفرَّق بين أهل مصر عمومًا حتى يتسنى له أن يقودهم وأن يسوسهم وأن يستذلهم كما هو شأن الجبابرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

فانتشر الذعر في بني إسرائيل، واشتد خوفهم من فرعون وجنده وملأ الرعب قلوبهم!!

وفي ذات الوقت كان فرعون وهامان وجنودهما يَحذرون من بني إسرائيل أشد الحذر، يَحذرون أن تزول مملكتهم على يد بعض بني إسرائيل.

صح عن قتادة[1] أنه قال: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦]، شيئًا ما حذر القوم قال: وذُكر لنا أن حازيًا حزا لعدوّ الله فرعون، فقال: يولد في هذا العام غلام من بني إسرائيل يسلبك ملكك، فتتبَّع أبناءهم ذلك العام، يقتل أبناءهم، ويستحيي نساءهم حذرًا مما قال له الحازي». اهـ.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

ذلك لأن الكهنة قالوا له: إن مولودًا يولد في بني إسرائيل يذهب ملكُكَ على يديه، أو قال له المنجمون ذلك، أو رأى رؤيا فعبِّرت كذلك.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وقوله: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ يعني: بني إسرائيل، وكانوا في ذلك

(١) أخرجه الطبري (٢٧١٦٩، ٢٧١٧٠).

الوقت خيار أهل زمانهم، هذا، وقد سُلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد، يستعملهم في أخس الأعمال، ويَكُدُّهم ليلاً ونهارًا في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيي نساءهم؛ إهانة لهم واحتقارًا وخوفًا من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه، وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل، حين ورد الديار المصرية، وجرى له مع جبارها ما جرى، حين أخذ سارة ليتخذها جارية، فصانها الله منه، ومنعه منها بقدرته وسلطانه، فبشر إبراهيم عليه السلام أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك مَلك مصر على يديه[(١)]، وكانت القبط تتحدث بهذا عند فرعون، فاحترز فرعون من ذلك، وأمر بقتل ذكر بني إسرائيل، ولن ينفع حذر من قدر؛ لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولكل أجل كتاب». اهـ.

ذكر بعض السبل التي سلكها فرعون لإضلال العباد واستعبادهم

من ذلك ما يلي:

❁ التفريق بينهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

[القصص: ٤]

❁ سياسة تجفيف المنابع: وصورتها في زمن فرعون ذبح الأبناء الذكور في مهدهم، قال تعالى في شأن فرعون: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾.

❁ إثارة النعرات الجاهلية واتهام أهل الصلاح بأنهم مفسدون: قال قوم فرعون لفرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ﴾.

[الأعراف: ١٢٧]

---

(١) ولم أقف لهذا على دليل مرفوعٍ عن رسول الله ﷺ.

۞ وقالوا في شأن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ [طه: ٦٣].

۞ التهديد بالسجن، قال فرعون: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

۞ التهديد بالقتل والعذاب: قال فرعون للسحرة لما آمنوا: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾.

[طه: ٧١]

وسيأتي لذلك مزيدُ بيان في الفوائد إن شاء الله.

مزيدٌ من وصف الحال في مصر زمن ميلاد موسى عليه السلام

فرعون وبطانته

۞ هذا، وأعود قائلًا: إن الحاكم الذي كان يحكم مصر في زمن نبي الله موسى عليه السلام كان جبَّارًا من الجبابرة وطاغية من أشد الطغاة، وكان كما سلف يدَّعي الإلهية والربوبية، مع كونه قتَّالًا سفَّاحًا.

۞ أما عن بطانته وحاشيته: فبطانةُ سوءٍ وحاشيةُ فساد، والعياذ بالله! بطانةٌ تُحرضه على الشر والفساد!!

وتُعين على الإثم والعدوان! وعلى البغي والطغيان!!

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾.

[الأعراف: ١٢٧]

لقد كانوا يشاركونه الجريمة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ

مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٤١].

❁ أما عن وزيره هامان: فإنه وزير سوء والعياذ بالله يُعين على الشر ويحرض عليه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٢٣-٢٥].

❁ وكذا جُندُ فرعون وجيشه على هذه الشاكلة من الضلال قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٨].

❁ وأصحاب رؤوس الأموال وسائر القوم والوجهاء وغير الوجهاء في جملتهم قوم سوء -والعياذ بالله-، ومن كان منهم مؤمنًا فإنه يكتم إيمانه ولا يستطيع إظهاره.

فقارون الطاغي الباغي، وكان قد أوتي من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، كان طاغية أيضًا من الطغاة يتعالى على العباد ويبغي عليهم ولا يقبل النصح ولا تجدي معه الموعظة.

أما عن سائر القوم فكما قال الله فيهم: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

لقد كان سعيهم في سخط الله، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا [١] ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

[الزخرف: ٥٥]

فهذه هي الأجواء زمن نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبين يدي مبعثه أيضًا!!

---

(١) آسفونا: أي أغضبونا.

حاكمٌ طاغية يدعي الألوهية والربوبية، ويقود الناس بالقهر والظلم!! يُفرِّق بين الناس لاستعبادهم وإذلالهم.

۞ **حُكم جائرٌ!!** حكم جاهليٌّ بكل ما تعنيه وتحمله كلمة الجاهلية.

۞ وزير سوءٍ يدير شؤون البلاد!!

۞ جندٌ أشرار يؤازرون الفجار ويُدافعون عنهم!!.

۞ أصحاب رؤوس أموال يسعون في الأرض بالفساد!!

۞ قوم سوء يقبلون الباطل ويقرونه ويعملون في سخط الله!!

۞ سحرٌ منتشرٌ ومتفشي بالبلاد!!.

۞ وفي وسط هؤلاء بنو إسرائيل المستضعفون المستذلون.

۞ وثمَّ من يكتم إيمانه ولا يجهر به خوفًا من القتل والتشريد فهي بلا شك أجواءٌ مظلمةٌ، وظلامُها دامسٌ!!

كفرٌ وجهلٌ وظلمٌ وعنادٌ، واستخفافٌ بالعقول وشرٌّ وفسادٌ، ومع هذا الذي ذُكر فإن فرعون وهامان وجنودهما كانوا يَحْذَرون من زوال مملكتهم على يد أحد المستضعفين من بني إسرائيل أو من أحد المواليد الذي سيولد لبني إسرائيل، فَقَتَل فرعون من النفوس ما لا يُعد ولا يُحصى، وأَزهق من الأرواح عددًا عظيمًا لا يعلمه إلا الله حذرًا من هذا المولود الذي سيكون زوال المملكة على يديه.

ولكن الله عَزَّوَجَلَّ عزيزٌ، غالبٌ على أمره، فعالٌ لما يريد لا يمنع قضاءه مانع، ولا يردُّ مُراده رادٌّ.

۞ **ولقد قال تعالى:** ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٥، ٦].

فكان فرعون وقومه على حذرٍ كما أسلفت ولكن لا يغني حذرٌ من قدر!! فالذي تحذر منه سيتربى في بيتك وستطعمه من جميل طعامك وتكسوه من جميل ثيابك!

وستسعى في راحته وإرضائه إذ هو صغير يتربى في بيتك يا فرعون!!!

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ(١): إِنَّ الْقِبْطَ شَكَوْا إِلَى فِرْعَوْنَ قِلَّةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، بِسَبَب قتل ولدانهم الذُّكُور، وخشي أَنْ تَتَفَانَى الْكِبَارُ مَعَ قَتْلِ الصِّغَارِ، فَيَصِيرُونَ هم الَّذين يلون مَا كَانَ بَنو إِسْرَائِيل يعالجون فَأَمَرَ فِرْعَوْنُ بِقَتْلِ الْأَبْنَاءِ عَامًا وَأَنْ يُتْرَكُوا عَامًا فَذكرُوا أَن هرون عَلَيْهِ السَّلَامُ ولد فِي عَام الْمُسَامحَة عَن قتل الأبناء، وَأَن مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ولد فِي عَام قَتْلِهِمْ.

ميلاد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وما أوحاه الله إلى أم موسى

ففي هذه الأجواء التي تقدم ذِكرها حملت أم موسى بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حملت وهي ممتلئة خوفًا ورعبًا وفزعًا وهلعًا!!

وكلما أثقلت وتقدم الحمل واقترب الوضع ازدادت خوفًا وهمًّا وغمًّا وفزعًا واضطرابًا وقلقًا!!

ولكن، وكما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦].

وكما قال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وكما قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

لقد ولدت أم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وضعت موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وازداد خوفُها عليه من شفار الذباحين، ومن المواسي والسكاكين!!فماذا كان؟؟!!ورحمة الله قريب من المحسنين!

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

ألهمها الله عَزَّ وَجَلَّ(٢) - وَقَذَفَ في قلبها - أن أَرضعيه استمري في إرضاعه، فإذا

---

(١) قصص الأنبياء (ص ٣٤٠).

(٢) فالوحي هنا في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ بمعنى الإلهام، فقد يأتي الوحي بمعنى الإلهام، =

خفت عليه، فألقيه في اليم، اقذفيه في نهر النيل[(١)]، بعد أن تضعيه في تابوت[(٢)]، إذ الله عَزَّوَجَلَّ قد قال: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ ...﴾ [طه: ٣٨، ٣٩].

ففعلت أم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ما أُمرت به، أرضعته كما أمرها الله عَزَّوَجَلَّ فلما خافت عليه من الذبح وخشيت أن يصل خبرها إلى أعداء الله فيأتونها ويأخذون وليدها فيذبحونه، وضعته في التابوت، وألقته في اليم كما أمرها الله عَزَّوَجَلَّ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]:

فَضَاقَتْ أُمُّهُ بِهِ ذَرْعًا واحترزت من أول مَا حبلت، وَلم يكن يظْهر عَلَيْهِم مَخَايِلُ الْحَبَلِ. فَلَمَّا وَضَعَتْ أُلْهِمَتْ أَنِ اتَّخَذَتْ لَهُ تَابُوتًا، فَرَبَطَتْهُ فِي حَبْلٍ وَكَانَتْ دَارُهَا مُتَاخِمَةً لِلنِّيلِ، فَكَانَتْ تُرْضِعُهُ، فَإِذَا خَشِيَتْ مِنْ أَحَدٍ وَضَعَتْهُ فِي ذَلِكَ التَّابُوتِ، فَأَرْسَلَتْهُ فِي الْبَحْرِ، وَأَمْسَكَتْ طَرَفَ الْحَبْلِ عِنْدَهَا، فَإِذَا ذَهَبُوا اسْتَرْجَعَتْهُ إِلَيْهَا بِهِ[(٤)].

= كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، وكما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤، ٥].

وأم موسى ليست بنبية لأن الله ﷻ قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقد قال فريق من أهل العلم إن الوحي كان في رؤيا منامية، وقال بعض أهل العلم: أن ملكًا تمثَّل لها فأخبرها بذلك، وقال القرطبي: وأجمع الكلُّ على أنها لم تكن نبيّة، وإنما إرسال الملك إليها على نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى في الحديث المشهور خرَّجَهُ البخاريُّ ومسلمٌ، وغير ذلك من تكليم الملائكة للناس من غير نبوة، وقد سلَّمت الملائكة على عمران بن حصين فلم يكن بذلك نبيًّا.

(١) نقل السمعاني: إجماع المفسرين على أن المراد باليم نهر النيل.

(٢) التابوت: صندوق وضع فيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٣) قصص الأنبياء (ص ٣٤٠).

(٤) ولا أعلم لكونها ربطت التابوت في حبل .. مستندًا فالله أعلم.

قلت (مصطفى): وبشَّر الله عَزَّوَجَلَّ أم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ووعدها ووعده الحق وقال وقوله الحق: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

لا تخافي على ولدك من فرعون وجنده أن يقتلوه، فلن يكون ذلك لا تخافي على ولدك من الغرق فالله حافظه ومُنجيه.

لا تحزني لفراق ولدك، فإنه وإن ألقيته في اليم راجعٌ إليك، سيردُّه الله عَزَّوَجَلَّ إليك وليس هذا فحسب، بل سيجعله الله نبيًّا مرسلًا فيا لها من بشارةٍ عظيمة لأم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يا لها من بشارة: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

ولدك سيكون نبيًّا!! سيكون رسولًا!!! فحقًّا يا لها من فضيلة!! ويا لها من بشارة!! يا لها من منقبةٍ!! يا له من رزقٍ حسنٍ!!

وصدق الله إذ يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

❁ ولنرجع إلى ذكر أم موسى (١) عليها وعلى ولدها وعلى نبينا الصلاة والسلام، وبعد أن أرضعت ولدها كما أمرها الله عَزَّوَجَلَّ، وخافت عليه فألقته في اليم، وجاءتها البشارةُ ماذا كان من أمر ولدها عَلَيْهِ السَّلَامُ؟!!

---

(١) تنبيهان:

الأول: قد تكلف قوم تسمية أم موسى بلا برهان من الكتاب العزيز أو السنة المباركة، فقال بعضهم اسمها (أيارخا) ولقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

الثاني: لم تذكر أسماء النساء في الكتاب العزيز، وإنما ذكرت مريم عليها السلام، وذلك -والله أعلم- لكونها وابنها جعلهما الله آية للعالمين.

فمن هنا استحب عددٌ من أهل العلم الإقلال من ذِكر أسماء النساء إلا إذا دعت حاجة وضرورة لذلك كأسماء أزواج النبي ﷺ وبعض الصحابيات، وذلك لنشر العلم الشرعي إذ الله قال: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِۚ﴾ [الأحزاب: ٣٤] والله أعلم.

آل فرعون يلتقطون موسى عليه السلام

قال الله عز وجل: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٨].

قال ابن كثير رحمه الله[(١)]:

وَذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ: أَنَّ الْجَوَارِيَ الْتَقَطْنَهُ مِنَ الْبَحْرِ فِي تَابُوتٍ مُغْلَقٍ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَتَجَاسَرْنَ عَلَى فَتْحِهِ، حَتَّى وَضَعْنَهُ بَيْنَ يَدَيِ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ آسِيَةَ بِنْتِ مُزَاحِمٍ.

ثم قال رحمه الله:

فَلَمَّا فَتَحَتِ الْبَابَ وَكَشَفَتِ الْحِجَابَ، رَأَتْ وَجْهَهُ يَتَلَأْلَأُ بِتِلْكَ الْأَنْوَارِ النَّبَوِيَّةِ وَالْجَلَالَةِ الْمُوسَوِيَّةِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ وَوَقَعَ نَظَرُهَا عَلَيْهِ أَحَبَّتْهُ حبًّا شَدِيدًا جدًّا، فَلَمَّا جَاءَ فِرْعَوْنُ قَالَ: مَا هَذَا؟ وَأَمَرَ بِذَبْحِهِ، فَاسْتَوْهَبَتْهُ مِنْهُ وَدَفَعَتْ عَنْهُ وَقَالَتْ: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ﴾ [القصص: ٩].

فَقَالَ لَهَا فِرْعَوْنُ: أما لَك فَنعم وأمالي فَلَا.

أَيْ لَا حَاجَةَ لِي بِهِ.

قال ابن كثير: وَالْبَلَاءُ مُوكل بِالْمَنْطق!

قلت (مصطفى): والظاهر من سياق الكتاب العزيز أن الذين التقطوه هم آل فرعون، فإن قلنا: إن المراد بالآل الأتباع، فلا إشكال فيدخل في الآل حينئذٍ ما ذكره ابن كثير رحمه الله من الجواري، وإلا فسياق الكتاب العزيز وما ورد فيه هو الأولى.

---

(١) قصص الأنبياء (ص ٣٤١).

حفظ الله عَزَّوَجَلَّ لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

❁ وعلى أية حال فقد التقطه آل فرعون، وقيض الله عَزَّوَجَلَّ لموسى من تدافع عنه وتنافح وتكون سببًا في حفظه وحمايته بإذن الله، ألا وهي امرأة فرعون.

فقبل أن يذبح موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رأته امرأة فرعون فألقى الله عَزَّوَجَلَّ في قلبها حبّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأحبته حبًّا شديدًا، وقد قال تعالى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]، فكل من يراه من أهل الإيمان يحبه وكان هذا الحب الذي ألقاه الله في قلب امرأة فرعون سببًا في نجاة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقبل أن يقتل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أقبلت امرأة فرعون قائلة: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.

[القصص: ٩]

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقولها: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ قد أَنَالَهَا اللهُ مَا رَجَتْ مِنَ النَّفْعِ: أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَهَدَاهَا اللهُ بِهِ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَأَسْكَنَهَا جَنَّتَهُ بِسَبَبِهِ. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمَا تَبَنَّيَاهُ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُولَدُ لَهُمَا وَلَدٌ.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَيْ لَا يَدْرُونَ مَاذَا يُرِيدُ اللهُ بِهِمْ، أَنْ قَيَّضَهُمْ لِالْتِقَاطِهِ، مِنَ النِّقْمَةِ الْعَظِيمَةِ بِفِرْعَوْنَ وَجُنُوده؟

فهكذا كانت سببًا في حمايته وحفظه ونجاته.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ: أَنَّ الْجَوَارِيَ الْتَقَطْنَهُ مِنَ الْبَحْرِ فِي تَابُوتٍ مُغْلَقٍ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَتَجَاسَرْنَ عَلَى فَتْحِهِ، حَتَّى وَضَعْنَهُ بَيْنَ يَدَيِ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ آسِيَةَ بِنْتِ مُزَاحِم -فالله أعلم-.

هذا، وقد يطرح هنا سؤال هل التقط آل فرعون موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليكون لهم عدوًّا وحزنًا أم كيف توجه الآية الكريمة؟!

وجوابه: هو أنهم لم يلتقطوه وفي نياتهم ذلك، ولكنهم التقطوه فكانت عاقبة

الالتقاط أنه كان لهم عدوًّا وحزنًا، فاللام هنا مِن العلماء من يسميها لام العاقبة، كما يقال لشخصٍ فعل شيئًا يظن أنه ينفع نفسه بهذا الفعل، يُقال له: ما فعلتَ ذلك إلا لضر نفسك.

أو «لام» الصيرورة، ومنه قول الشاعر:

أموالُنَا لِذَوي الميراث نجمعها ... ودُورُنا لخرابِ الدهرِ نبْنِيها

ولكن من أهل العلم من قال: إن اللام للتعليل فمعناه عند القائلين به: أن الله تعالى قيضهم لالتقاطه ليجعله لهم عدوًّا وحزنًا.

قلت: فهكذا تدبير الله عَزَّوَجَلَّ، وهكذا يكيد الله عَزَّوَجَلَّ لأهل الكفر، وصدق الله إذ قال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠].

فالقوم في وادٍ، ورب العباد فعال لما يريد!!!

۞ أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٨]، قال الأكثرون من أهل العلم: الخطأ هنا الشرك والذنب العظيم فالمعنى كانوا مرتكبين الخطيئة بما هم عليه من الكفر والظلم، وهي كقوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾ [نوح: ٢٥].

وكقول العزيز لزوجته: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩].

۞ ولقائل أن يقول: ﴿كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ في تقديرهم عند التقاط موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد التقطوه لغرض معينٍ عندهم، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ أراد أمرًا آخر غير الذي أرادوه والله تعالى أعلم.

۞ فحقًّا إن الله يعلم ونحن لا نعلم:

فكم من شخص يفعل أمرًا وهو في غاية الضرر عليه، وكم من شخص يحب أمرًا وهو شرٌّ له، وكم من شخص يكره أمرًا وفيه الخير له.

فسبحانك ربنا لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

لقد حفظ الله موسى عليه السلام ونجّاه وقيض له من يدافع عنه ويكون سببًا في سلامته ونجاته وأمانه والقوم لا يشعرون.

حال أم موسى بعد إلقاء ولدها في اليم

وماذا عن أم موسى بعد أن أُلقي موسى عليه السلام في اليم والتقطه آل فرعون؟!

قال تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: ١٠].

أصبح قلبها فارغًا من كل شيءٍ إلا من ذكر موسى عليه السلام.

أصبحت تفكر ماذا صنع ولدي؟!!

أين ذهبوا به؟!!

أحيٌّ هو أم قد ذُبح؟!!

قال قتادة في تفسير الآية: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾ قال: لاغيًا من كل شيء إلا من ذِكر موسى(١).

❁ وذهب بعض العلماء مذهبًا آخر فقالوا ما حاصله: لقد أنساها الشيطان وعد الله عز وجل لها بقوله: ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾.

❁ وقد صحَّ عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه قال: فارغًا من الوحي الذي أوحى الله إليها حين أمرها أن تلقيه في البحر ولا تخاف ولا تحزن، قال فجاءها الشيطان فقال: يا أم موسى كرهت أن يقتلَ فرعون موسى فيكون لك أجرُهُ وثوابُهُ وتولَّيت قتله، فألقيتيه في البحر وغرَّقتيه، فقال الله: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾ من الوحي الذي أوحاه إليها، كذا قال ابن زيد، والقول الأول هو الأشهر عند المفسرين والله أعلم.

---

(١) وهذا قول أكثر العلماء.

أما قوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾[(١)]، أي أنها كادت أن تظهر أمرها، أوشكت أن تقول هذا ولدي، أوشكت أن تبكي وتصيح وتقول يا ابناه أَوشكت أن تُخبر الناس بخبرها وخبر ما صنعت بولدها وما صُنع به، وذلك كله من شدة حزنها.

۞ لقد أوشكت أم موسى أن تُخبر بالأمر! أوشكت وأوشكت واقتربت من ذلك واقتربت!! ولكن الله سلَّم، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ ثبتها ووفقها وقوَّى قلبها وقذف فيه الصبر واليقين، والإيمان لتكون من المصدقين بوعد الله عَزَّوَجَلَّ ومن الموقنين بذلك وبكل ما قاله الله عَزَّوَجَلَّ، وحقًّا فإنه لا ثبات لأحدٍ إلا إذا ثبته الله عَزَّوَجَلَّ!

ولا قدرة ولا طاقة لأحدٍ على التحمل إلا إذا أعانه الله!!

ولا يستطيع الصابر أن يصبر إلا إذا صبَّره الله ولقد قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧].

فالحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه.

۞ لقد وُفِّقت أمُّ موسى إلى النافع من العمل والمبارك من الصنيع بدلًا من الحزن، فالحزن لا يجدي كثيرًا ولا يكاد ينفع لقد صبرت ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ تتبعي أثره واطلبي خبره، وانظري ما يفعل به ولا تشعري أحدًا بذلك.

ففعلت أخت موسى ما أمرتها به أُمُّها، تلطفت وتحسست الأخبار ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

فرأته وأبصرته وعرفته عن بعدٍ وإعراضٍ، تنظر إليه مستخفيةً وكأنها لا تريده، وكأنها لا تعرف عنه شيئًا ولا تبحث عنه إنها رأته عن بُعد وهم لا يشعرون بها ولا يلتفتون إليها.

فحقًّا إنها الأخرى (أخت موسى) فتاةٌ ذكيةٌ مُوفقةٌ أخذت بالأسباب.

حُسن توكلها على الله واعتمادها عليه سبحانه.

ولقد قال لنا ربنا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء: ٧١].

---

(١) ومعنى (تبدي) تظهر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩].

أخت موسى تتبع الأخبار

عرفت أخت موسى مكان أخيها، وأين ذهبوا به!!

لقد ذهبوا به إلى بيت فرعون!

إلى دار فرعون!

إلى قصر الطاغية الذي يقول أنا ربكم الأعلى!!

إلى قصر متكبر جبار لا يؤمن بيوم الحساب يذبح الأبناء ويقول للناس: ما علمت لكم من إله غيري!!

فيا ترى كيف سيُصنع بموسى عليه السلام؟!!

وكيف حالُ أمِّ موسى إذا جاءتها ابنتها تخبرها بأن ولدك في بيت فرعون؟!!

فحقًّا إن الله يعلم ونحن لا نعلم، وعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا!!

❁ لقد واصلت أخت موسى تتبع الأخبار! لقد استقر موسى عليه السلام بدار فرعون، وألقى الله المحبة العظيمة في قلب امرأة فرعون له، وبحثوا له عن مرضعٍ ترضعه أو طعامٍ يطعمه أو شرابٍ يشربه.

وسبحان الله لم يقبل موسى عليه السلام ثدي أية امرأة مهما حاولوا معه!! ولم يقبل طعامًا، أي طعامٍ كان!! ولم يقبل شرابًا!!

وسبحان الله الذي قذف محبته في قلب امرأة فرعون إنها تبحث عن المراضع وتأتي بهن ويأبى موسى عليه السلام كلَّ ثديٍ.

ما العمل؟! موسى عليه السلام سيهلك، يخشى عليه من الموت وامرأة فرعون تجزع عليه أشد الجزع وتخشى عليه أشد الخشية، فبحثوا عن المراضع وبحثوا، وكل ذلك لا يُجدي ولا ينفع! لقد قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أي ومنعناه من الارتضاع من ثدي النساء، والتحريم هنا معناه المنع، وقوله:

﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي من قبل أم موسى.

وآنذاك، وأخت موسى تتابع الأحداث وتتحسس الأخبار، فعلمت ومن كثرة السؤال عن المراضع، وبتعليم الله عَزَّوَجَلَّ لها أنهم يبحثون عن مرضعٍ، ولقد ذكر بعض العلماء أنهم ذهبوا به إلى القوابل[1]: (اللواتي يولدن النساء) وإلى الأسواق يبحثون عن مرضع، وهو يأبى.

فحينئذٍ تدخلت أُخت موسى وبذكاءٍ وفطنةٍ وحسن خطاب، لقد تكلمت قائلةً، وبتوفيق من الله: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٍ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾؟؟

سبحان الله لم يرد عن رسول الله ﷺ أنهم سألوها من أين عرفت ذلك!! وما يدريك أنهم له ناصحون!

لم يرد أنهم سألوها عن شيء من ذلك!

فالموقف عصيب وهم يخشون على حياته والله عَزَّوَجَلَّ قادر على منعهم من ذلك السؤال!!

رجوع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أمه لإرضاعه

۞ إلا أنه قد ورد عن ابن عباس أنه قال: لما قالت ذلك قالوا لها: وما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه؟!

فقالت: رغبةً في سرور الملك رجاء منفعته ذَكر ذلك ابن كثير عنه، وقال: فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم فأخذته أمه فَلَمَّا أَرْضَعَتْهُ الْتَقَمَ ثَدْيَهَا وَأَخَذَ يَمْتَصُّهُ وَيَرْتَضِعُهُ، فَفَرِحُوا بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا، وَذهب البشير إِلَى «آسِيَةَ» يُعْلِمُهَا بِذَلِكَ، فَاسْتَدْعَتْهَا إِلَى مَنْزِلِهَا وَعَرَضَتْ عَلَيْهَا أَنْ تَكُونَ عِنْدَهَا، وَأَنَّ تُحْسِنَ إِلَيْهَا،

---

(١) القوابل هن الدايات اللواتي يُولدن النساء.

فَأَبَتْ عَلَيْهَا وَقَالَتْ: إِنَّ لِي بَعْلًا وَأَوْلَادًا، وَلَسْتُ أَقْدِرُ عَلَى هَذَا إِلَّا أَنْ تُرْسِلِيهِ مَعِي.

فَأَرْسَلَتْهُ مَعَهَا، وَرَتَّبَتْ لَهَا رَوَاتِبَ، وَأَجْرَتْ عَلَيْهَا النَّفَقَاتِ وَالْكَسَاوِى وَالْهِبَاتِ، فَرَجَعَتْ بِهِ تَحُوزُهُ إِلَى رَحْلِهَا وَقَدْ جَمَعَ اللهُ شَملَهُ بِشَمْلِهَا.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أَيْ كَمَا وَعَدْنَاهَا بِرَدِّهِ وَرِسَالَتِهِ، فَهَذَا رَدُّهُ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِ الْبِشَارَةِ بِرِسَالَتِهِ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قلت (مصطفى): فسبحان الله العظيم الكريم، الحليم الرحيم العزيز الذي لا يُغلب، القوي القادر له الأسماء الحُسنى والصفات العلى.

لقد ردَّ الله عَزَّوَجَلَّ موسى إلى أمه، فوعد الله حق، وقول الله صدق، قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣].

لقد رجع ولدها إليها يتربى في بيتها، تُرضعه آمنةً مطمئنة، بل وتتقاضى على ذلك الأجر وتُكرم من أجله، ويُغدق عليها بالهدايا والمنح من أجل ذلك.

لقد قال تعالى ذِكره لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عند تكليمه - مُذكرًا ببعض نعمه عليه-:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٧-٣٩].

قال عددٌ من العلماء - علماء السلف - في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ ما حاصله:

ولتتربى وتطعم وتُغذى أحسن الطعام وأطيبه وأحسن الشراب وأطيبه، ولتكسى أحسن اللباس وتلبس أجمل الملابس، بمرأى مني، وبحفظي لك وكلاءتي لك.

قدرٌ من حديث الفتون يتعلق بما سبق

هذا، ويطيب لي في هذا المقام أن أذكر قدرًا من حديث الفتون الذي أخرجه أبو يعلى والطبري والنسائي[1][2] وغيرهم بسندٍ حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو القدر المتعلق بأمر موسى عليه السلام قبيل ولادته وحتى رجوعه إلى أمه.

ذكر أبو يعلى بإسنادٍ حسن إلى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًاۚ﴾ [طه: ٤٠] فَسَأَلْتُهُ عَنِ الْفُتُونِ مَا هُوَ؟ فَقَالَ: اسْتَأْنِفِ النَّهَارَ يَا ابْنَ جُبَيْرٍ، فَإِنَّ لَهَا حَدِيثًا طَوِيلًا. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ لِأَنْتَجِزَ مِنْهُ مَا وَعَدَنِي مِنْ حَدِيثِ الْفُتُونِ، فَقَالَ: تَذَاكَرَ فِرْعَوْنُ وَجُلَسَاؤُهُ مَا كَانَ اللهُ وَعَدَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام مِنْ أَنْ يَجْعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ أَنْبِيَاءَ وَمُلُوكًا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَنْتَظِرُونَ ذَلِكَ، مَا يَشُكُّونَ فِيهِ وَقَدْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ، فَلَمَّا هَلَكَ قَالُوا: لَيْسَ كَذَلِكَ كَانَ وَعْدُ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ فِرْعَوْنُ: فَكَيْفَ تَرَوْنَ؟ فَائْتَمَرُوا وَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ رِجَالًا مَعَهُمُ الشِّفَارُ، يَطُوفُونَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَا يَجِدُونَ مَوْلُودًا ذَكَرًا إِلَّا ذَبَحُوهُ. فَفَعَلُوا ذَلِكَ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّ الْكِبَارَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَمُوتُونَ بِآجَالِهِمْ، وَالصِّغَارَ يُذْبَحُونَ، قَالُوا: يُوشِكُ أَنْ تُفْنُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَتَصِيرُوا إِلَى أَنْ تُبَاشِرُوا مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْخِدْمَةِ الَّتِي كَانُوا يَكْفُونَكُمْ، فَاقْتُلُوا عَامًا كُلَّ مَوْلُودٍ ذَكَرٍ، فَيَقِلَّ أَبْنَاؤُهُمْ وَدَعُوا عَامًا فَلَا تَقْتُلُوا مِنْهُمْ أَحَدًا، فَيَشِبُّ الصِّغَارُ مَكَانَ مَنْ يَمُوتُ مِنَ الْكِبَارِ؛ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَكْثُرُوا بِمَنْ تَسْتَحْيُونَ مِنْهُمْ فَتَخَافُوا مُكَاثَرَتَهُمْ إِيَّاكُمْ، وَلَمْ يُفْنَوْا بِمَنْ تَقْتُلُونَ وَتَحْتَاجُونَ إِلَيْهِمْ، فَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

فَحَمَلَتْ أُمُّ مُوسَى بِهَارُونَ فِي الْعَامِ الَّذِي لَا يُذْبَحُ فِيهِ الْغِلْمَانُ، فَوَلَدَتْهُ

---

(١) انظر ما قاله ابن كثير بنحوه في قصص الأنبياء (ص ٣٤٣)، وانظر ما كتبته في التسهيل لتأويل التنزيل في سورة طه.

(٢) أبو يعلى الموصلي في مسنده (٥/ ١٠)، والطبري (١٦/ ١٢٥)، والنسائي في الكبرى، وراجع كتابي «الصحيح المسند من أحاديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة».

عَلَانِيَةً آمِنَةً. فَلَمَّا كَانَ مَنْ قَابِلٍ حَمَلَتْ بِمُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَوَقَعَ فِي قَلْبِهَا الْهَمّ وَالْحُزْنُ، وَذَلِكَ مِنَ الْفُتُونِ -يَا بْنَ جُبَيْرٍ- مَا دَخَلَ عَلَيْهِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، مِمَّا يُرَادُ بِهِ، فَأَوْحَى اللهُ تبارك وتعالى إِلَيْهَا أَنْ ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الْقَصَصِ: ٧] فَأَمَرَهَا إِذَا وَلَدَتْ أَنْ تَجْعَلَهُ فِي تَابُوتٍ ثُمَّ تُلْقِيهِ فِي الْيَمِّ. فَلَمَّا وَلَدَتْ فَعَلَتْ ذَلِكَ، فَلَمَّا تَوَارَى عَنْهَا ابْنُهَا أَتَاهَا الشَّيْطَانُ، فقالت في نفسها: ما صنعت با بني، لَوْ ذُبِحَ عِنْدِي فَوَارَيْتُهُ وَكَفَّنْتُهُ، كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُلْقِيَهُ إِلَى دَوَابِّ الْبَحْرِ وَحِيتَانِهِ.

فَانْتَهَى الْمَاءُ بِهِ حَتَّى أَوْفَى بِهِ عِنْدَ فُرْضَة مُسْتَقَى جَوَارِي امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَخَذْنَهُ فَهَمَمْنَ أَنْ يَفْتَحْنَ التَّابُوتَ، فَقَالَ بَعْضُهُنَّ إِنَّ فِي هَذَا مَالًا وَإِنَّا إِنْ فَتَحْنَاهُ لَمْ تُصَدِّقْنَا امْرَأَةُ الْمَلِكِ بِمَا وَجَدْنَاهُ فِيهِ، فَحَمَلْنَهُ كَهَيْئَتِهِ لَمْ يُخْرِجْنَ مِنْهُ شَيْئًا حَتَّى رَفَعْنَهُ إِلَيْهَا. فَلَمَّا فَتَحَتْهُ رَأَتْ فِيهِ غُلَامًا، فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ مِنْهَا مَحَبَّةٌ لَمْ يُلْقَ مِنْهَا عَلَى أَحَدٍ قَطُّ. وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا مِنْ ذِكْرِ كُلِّ شَيْءٍ، إِلَّا مِنْ ذِكْرِ مُوسَى.

فَلَمَّا سَمِعَ الذَّبَّاحُونَ بِأَمْرِهِ، أَقْبَلُوا بِشِفَارِهِمْ إِلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ لِيَذْبَحُوهُ، وَذَلِكَ من الفتون يا ابن جُبَيْرٍ، فَقَالَتْ لَهُمْ: اتْرُكُوهُ، فَإِنَّ هَذَا الْوَاحِدَ لَا يَزِيدُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى آتِيَ فِرْعَوْنَ فَأَسْتَوْهِبَهُ مِنْهُ، فَإِنْ وَهَبَهُ لِي كُنْتُمْ قَدْ أَحْسَنْتُمْ وَأَجْمَلْتُمْ، وَإِنْ أَمَرَ بِذَبْحِهِ لَمْ أَلُمْكُمْ.

فَأَتَتْ فِرْعَوْنَ فَقَالَتْ: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَۖ﴾ [الْقَصَصِ: ٩] فَقَالَ فِرْعَوْنُ: يَكُونُ لَكِ، فَأَمَّا لِي فَلَا حَاجَةَ لِي فِي ذلك.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَالَّذِي يُحْلَف بِهِ لَوْ أَقَرَّ فِرْعَوْنُ أَنْ يَكُونَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَهُ كَمَا أَقَرَّتِ امْرَأَتُهُ، لَهَدَاهُ اللهُ كَمَا هَدَاهَا، وَلَكِنْ حَرَمَهُ ذَلِكَ**». فَأَرْسَلَتْ إِلَى مَنْ حَوْلَهَا، إِلَى كُلِّ امْرَأَةٍ لَهَا لَبَنٌ لِتَخْتَارَ لَهُ ظِئْرًا، فَجَعَلَ كُلَّمَا أَخَذَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ لِتُرْضِعَهُ لَمْ يُقْبِلْ عَلَى ثَدْيِهَا حَتَّى أَشْفَقَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ أَنْ يَمْتَنِعَ مِنَ اللَّبَنِ فَيَمُوتَ، فَأَحْزَنَهَا

ذَلِكَ، فَأَمَرَتْ بِهِ فَأُخْرِجَ إِلَى السُّوقِ وَمَجْمَعِ النَّاسِ، تَرْجُو أَنْ تَجِدَ لَهُ ظِئْرًا تَأْخُذُهُ مِنْهَا، فَلَمْ يَقْبَلْ، وَأَصْبَحَتْ أُمُّ مُوسَى وَالِهَة، فَقَالَتْ لِأُخْتِهِ: قُصِّي أَثَرَهُ وَاطْلُبِيهِ، هَلْ تَسْمَعِينَ لَهُ ذِكْرًا، أَحَيٌّ ابْنِي أَمْ قَدْ أَكَلَتْهُ الدَّوَابُّ؟ وَنَسِيَتْ مَا كَانَ اللهُ وَعَدَهَا فِيهِ، فَبَصُرَتْ بِهِ أُخْتُهُ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ -وَالجُنُب: أَنْ يَسْمُوَ بَصَرُ الْإِنْسَانِ إِلَى شَيْءٍ بَعِيدٍ وَهُوَ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ بِهِ -فَقَالَتْ مِنَ الْفَرَحِ حِينَ أَعْيَاهُمُ الظُّؤُرات: أَنَا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ. فَأَخَذُوهَا فَقَالُوا: مَا يُدْرِيكِ؟ مَا نُصْحُهُمْ لَهُ؟ هَلْ يَعْرِفُونَهُ؟ حَتَّى شَكُّوا فِي ذَلِكَ، وَذَلِكَ مِنَ الْفُتُونِ يَا ابْنَ جُبَيْرٍ. فَقَالَتْ: نُصْحُهُمْ لَهُ وَشَفَقَتُهُمْ عَلَيْهِ رَغْبَتُهُمْ فِي ظُؤْرَةِ الْمَلِكِ، وَرَجَاءُ مَنْفَعَةِ الْمَلِكِ. فَأَرْسَلُوهَا فَانْطَلَقَتْ إِلَى أُمِّهَا فَأَخْبَرَتْهَا الْخَبَرَ.

فَجَاءَتْ أُمُّهُ، فَلَمَّا وَضَعَتْهُ فِي حِجْرِهَا نَزَا إِلَى ثَدْيِهَا فمصَّه، حَتَّى امْتَلَأَ جَنْبَاهُ رِيًّا، وَانْطَلَقَ الْبُشَرَاءُ إِلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ يُبَشِّرُونَهَا أَنْ قَدْ وَجَدْنَا لِابْنِكِ ظِئْرًا. فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهَا. فَأَتَتْ بِهَا وَبِهِ فَلَمَّا رَأَتْ مَا يَصْنَعُ بِهَا قَالَتِ: امْكُثِي تُرْضِعِي ابْنِي هَذَا، فَإِنِّي لَمْ أُحِبَّ شَيْئًا حُبَّهُ قَطُّ. قَالَتْ أُمُّ مُوسَى: لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَدَعَ بَيْتِي وَوَلَدِي فَيَضِيعَ، فَإِنْ طَابَتْ نَفْسُكِ أَنْ تُعْطِينِيهِ فَأَذْهَبَ بِهِ إِلَى بَيْتِي، فَيَكُونَ مَعِي لَا آلُوهُ خَيْرًا فَعَلْتُ، وَإِلَّا فَإِنِّي غَيْرُ تَارِكَةٍ بَيْتِي وَوَلَدِي. وَذَكَرَتْ أُمُّ مُوسَى مَا كَانَ اللهُ وَعَدَهَا فِيهِ، فَتَعَاسَرَتْ عَلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَأَيْقَنَتْ أَنَّ اللهَ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ فَرَجَعَتْ بِهِ إِلَى بَيْتِهَا مِنْ يَوْمِهَا، فأصبح أهل القرية مجتمعين يمتنعون مِنَ السُّخْرَةِ وَالظُّلْمِ مَا كَانَ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَرَعْرَعَ قَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لِأُمِّ مُوسَى: أُرِيدُ أَن تريني ابْنِي؟ فَوَعَدَتْهَا يَوْمًا تُرِيهَا إِيَّاهُ فِيهِ، وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لِخُزَّانِهَا وظُؤُرها وَقَهَارِمَتِهَا: لَا يَبْقَيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا اسْتَقْبَلَ ابْنِي الْيَوْمَ بِهَدِيَّةٍ وَكَرَامَةٍ لِأَرَى ذَلِكَ وَأَنَا بَاعِثَةٌ أَمِينًا يُحْصِي مَا يَصْنَعُ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ، فَلَمْ تَزَلِ الهدايا والنحل وَالْكَرَامَةُ تَسْتَقْبِلُهُ مِنْ حِينِ خَرَجَ مِنْ بَيْتِ أُمِّهِ إِلَى أَنْ دَخَلَ عَلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا بجلته وَأَكْرَمَتْهُ، وَفَرِحَتْ بِهِ وبجلت أُمَّهُ لِحُسْنِ أَثَرِهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَتْ: لَآتِيَنَّ بِهِ فِرْعَوْنَ فَلَيُبَجِّلَنَّهُ وَلَيُكْرِمَنَّهُ، فَلَمَّا دَخَلَتْ بِهِ عَلَيْهِ جَعَلَهُ فِي حِجْرِهِ، فَتَنَاوَلَ مُوسَى لِحْيَةَ

فِرْعَوْنَ يَمُدُّهَا إِلَى الْأَرْضِ، فَقَالَ الْغُوَاةُ مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ لِفِرْعَوْنَ: أَلَا تَرَى مَا وَعَدَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ نَبِيَّهُ، إِنَّهُ زَعَمَ أَنْ يَرِثَكَ وَيَعْلُوكَ وَيَصْرَعَكَ، فَأَرْسَلَ إِلَى الذَّبَّاحِينَ لِيَذْبَحُوهُ. وَذَلِكَ مِنَ الْفُتُونِ يَا ابْنَ جُبَيْرٍ بَعْدَ كُلِّ بَلَاءٍ ابْتُلِيَ بِهِ، وَأُرِيدَ بِهِ.

فَجَاءَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ فَقَالَتْ مَا بَدَا لَكَ فِي هَذَا الْغُلَامِ الَّذِي وَهَبْتَهُ لِي؟ فَقَالَ أَلَا تَرِينَهُ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَصْرَعُنِي وَيَعْلُونِي! فَقَالَتِ: اجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَمْرًا يُعْرَفُ فِيهِ الْحَقُّ، ائْتِ بِجَمْرَتَيْنِ وَلُؤْلُؤَتَيْنِ، فَقَرِّبْهُنَّ إِلَيْهِ، فَإِنْ بَطَشَ بِاللُّؤْلُؤَتَيْنِ وَاجْتَنَبَ الْجَمْرَتَيْنِ فَاعْرِفْ أَنَّهُ يَعْقِلُ، وَإِنْ تَنَاوَلَ الْجَمْرَتَيْنِ وَلَمْ يُرِدِ اللُّؤْلُؤَتَيْنِ، عَلِمْتَ أَنَّ أَحَدًا لَا يُؤْثِرُ الْجَمْرَتَيْنِ عَلَى اللُّؤْلُؤَتَيْنِ وَهُوَ يَعْقِلُ. فَقَرَّبَ إِلَيْهِ فَتَنَاوَلَ الْجَمْرَتَيْنِ، فَانْتَزَعَهُمَا مِنْهُ مَخَافَةَ أَنْ يَحْرِقَا يَدَهُ، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: أَلَا تَرَى؟ فَصَرَفَهُ اللهُ عَنْهُ بَعْدَ مَا كَانَ قَدْ هَمَّ بِهِ، وَكَانَ اللهُ بَالِغًا فِيهِ أَمْرَهُ.

قلت (مصطفى): وأعود إلى قوله تعالى، وربي أصدق القائلين: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: ١٣] .

لقد صدق الله إذ قال لأم موسى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ .

فها هو موسى عليه السلام يرجع إلى أمه، يردُّه الله إليها ردًّا جميلًا كريمًا ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ تستقر عينها برؤيته فلا تلتفت ببصرها يمينًا ولا شمالًا قلقًا أو اضطرابًا ولا تلهفًا إذا رأت طفلًا من الأطفال.

أصبحت في طمأنينة وسكينةٍ بدلًا من القلق والحزن على ولدها وكذلك رددنا ولدها إليها: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ .

نعم هي تعلم أن وعد الله حق!! فهي امرأة مؤمنة!

ولكن ليزداد إيمانها بذلك وليزداد يقينها بذلك!!

فأكثر الناس لا يتيقنون بذلك، بل ولا يؤمنون بذلك، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

صدقت يا ربي فيما قلت، فأنت أصدق القائلين!!!

ومن كرم الله عَزَّوَجَلَّ وهو الكريم سبحانه:

لقد قال ربنا عَزَّوَجَلَّ وهو أصدق القائلين: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٦].

ويطيب في هذا المقام أن اذكِّر بشيءٍ من معنى هذه الآية الكريمة، فأقول وبالله التوفيق:

من معانيها: ويجيب الله عَزَّوَجَلَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فيعطيهم مما سألوه، ويزيدهم من فضله فيعطيهم أيضًا أكثر مما سألوه وأفضل مما طلبوه.

فإذا نزلنا هذا المعنى على ما نحن بصدده من قصة أم موسى عليها السلام فغاية ما كانت تتمناه وهي حامل بموسى أن يسلم الله ولدها وأن يحفظه من شفار الذباحين ومن المواسي والسكاكين وأن يسلِّمها ويسلِّم ولدها من فرعون وجنده !! ولكن ماذا كان؟؟!!

لقد رجع إليها ولدها أحسن رجوع ورُدَّ إليها أجمل مَرَدٍّ، لقد أعطاها الله عَزَّوَجَلَّ ما تتمناه!!

۞ بل ولقد زادها فوق ذلك أمانًا فوق الأمان الذي تطلبه وترجوه!!! فأصبحت تدخل بيت فرعون آمنة مطمئنة، وهي صاحبة الفضل عليهم بإرضاعها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

بل وتتقاضى على ذلك أجرًا وتكرم بأنواع الهدايا والاتحافات، وتفتح لها الأبواب وتستقبل أحسن استقبال، ويُرحب بها جميل الترحاب!!

وفوق ذلك وأعظم من ذلك وأجلَّ أن الله سبحانه وتعالى جعل ابنها بعد ذلك من المرسلين!!!

فيا له من فضل!!

ويا لها من بشارة عظيمة لأم موسى بل (ولقد اصطفاه الله بالرسالة والتكليم).

لم تكن أم موسى تتوقع أن يكون ابنها من بين سائر خلق الله هو المصطفى بالتكليم.

والمصطفى من قومه بالرسالة كذلك.

قال جل وعلا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾.

[الأعراف: ١٤٤]

فيا قرة عين أم موسى ويا سعادتها بإيمانها وبرزق الله لها ولولدها عليه السلام!!

يا لها من فرحة وسعادة إذ يمتن الله عليها وعلى ولدها عليه السلام بهذا:

يا لها من فرحة بأن يكون ولدها من أولي العزم!! من الرسل!! وأن يكون ولدها عند الله وجيهًا!!

❁ يا لها من سعادةٍ أن تجري المعجزات على يديه وتتفجر الحجارة بإذن الله ثم بعصاه وينشق له البحر ويُسلِّم ويُحفظ، ويهتدي على يديهم فئامٌ من الناس.

حقًّا يا ربنا فأنت كريم! كريم وفضلك عظيم!

حقًّا يا ربنا فأنت تتولى الصالحين!!

قولك صدق ووعدك حق: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

فأدخلنا يا ربنا برحمتك في عبادك الصالحين.

(٥٢) أحمر أسود

الفصل الثاني

۞ يحوى هذا الفصل ما يلي:

۞ موسى عليه السلام في شبابه.

۞ وقصة قتله القبطي.

۞ وذهابه إلى مدين.

۞ وزواجه هنالك.

(٥٤) أحمر أسود

موسى عليه السلام عند بلوغ أشدهِ واستوائه

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤]

يخبرنا الله عز وجل بحال موسى عليه السلام عند بلوغه الأشد، وقد قال بعض العلماء إن بلوغ الأشد عند الأربعين سنة، وقيل: إن ذلك عند ثلاثٍ وثلاثين سنة، وقال بعض العلماء إن بلوغ الأشد يختلف من شخص إلى شخص ومن حال إلى حال أما قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ..﴾ [الأحقاف: ١٥].

فقد قال بناءً عليها بعض العلماء: إن بلوغ الأَشد أربعين سنة، وقال آخرون إن بلوغ الأشد شيءٌ وبلوغ الأربعين شيءٌ آخر، فالله أعلم، فقد يكون بلوغ الأشد قبل الأربعين أما المراد ببلوغ الأشد والاستواء فكما قال بعض العلماء إن المراد اكتمال الخَلق والخُلق، أي أنه بلغ أكمل درجات قوته البدنية والعقلية، أي بلغ أشد قوته وتمام عقله وصاغه علماء آخرون بقولهم هو احتكام الخلق والخُلق أما قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ أي مننا عليه وتفضلنا عليه بالحكم والعلم أما المراد بالحكم فقال بعض العلماء إنه السداد والتوفيق والإصابة في الأمور.

أما العلم فهو معروف، وهو العلم النافع في الدين والدنيا هذا، وقد قال بعض أهل العلم إن المراد بالحكم والعلم النبوة والرسالة، وأرى هذا بعيدًا في هذا الموطن لأمورٍ، منها أن قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فليس كل محسن يجازى بأن يكون نبيًّا ورسولًا.

ثم أيضًا إن قتل النفس جاء بعد أن بلغ أشده واستوى.

والظاهر – والله أعلم – أنه أوتي النبوة والرسالة عند تكليم الله عَزَّوَجَلَّ عند الطور، أثناء رجوعه من مدين، والله أعلم.

هذا، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فمفاده أن كل محسن يجازيه ربُّه تبارك وتعالى، فكما وأننا أنعمنا على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكذلك ننعم على كل محسن كما قال الصديق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وذلك حتى يخرج القصص القرآني من حيز الخصوص إلى العموم، والله تعالى أعلم.

قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الإسرائيلي والقبطي وقتله القبطي

ذَكر بعض أهل العلم أن فرعون قد تبنى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجعله كالابن له، وهذا عند قول امرأة فرعون ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ [القصص: ٩] فمن ثَمَّ كانت لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هيبةٌ في الناس وكانت له حظوة، ففي يوم من الأيام وكان موسى قد بلغ أشده واستوى، اكتمل خلقه وخُلقه وأصبح قويًّا رشيدًا ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا﴾ [القصص: ١٥] أما أي المدن هي؟ فلم يرد لها اسم في الكتاب العزيز ولا في السنة المباركة الصحيحة، فالحاصل أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ دخل المدينة، وذلك على قول كثيرين من العلماء وقت الظهيرة وذكر بعض العلماء أسبابًا لدخول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ المدينة على حين غفلة من أهلها، منها:

أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يخرج مع فرعون في موكبه، فركب فرعون ذات يوم ومعه بطانتُه وحاشيتُه، وموسى غير شاهد، أي غير متواجد، فلما حضر موسى علم أن فرعون قد خرج فركب واتبع أثر فرعون فأدركه المقيل (وقت القيلولة) في هذه المدينة فدخلها وأهلها وقت القيلولة ظُهرًا.

وقال آخرون من أهل العلم: إن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ دخل المدينة على حين غفلةٍ من أهلها؛ لأنه كان قد خالفهم في دينهم وعاب عليهم ما كانوا يعبدون من دون الله، فكان مطلوبًا، مطلوبٌ إحضاره، فالله أعلم.

ونرجع فنقول: إن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما دخل المدينة وجد فيها رجلين يقتتلان، يتضاربان ويتغالبان، أحد الرجلين إسرائيلي من قبيلة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهذا قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي من جماعته وأهل دينه، وشيعة الرجل هم الذين يشايعونه ويناصرونه والرجل الثاني ﴿مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي: من القبط من آل فرعون فطلب الإسرائيلي من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يُغيثه وينصره على القبطي وينقذه منه!

فماذا كان من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما استغاثه الإسرائيلي لقد ضرب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ القبطي ضربة بجميع كفه فقضى عليه!، وقتله!!

فهذا قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾.

ولكن ماذا كان؟! ماذا كان بعد أن قتل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ القبطي؟!!

لقد ندم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على ذلك ندمًا شديدًا!! ندم لأنه قتل نفسًا لم يؤمر بقتلها!! وسيقول يوم القيامة معتذرًا عن الشفاعة العظمى: «**نَفْسِي نَفْسِي، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا**»(١).

هكذا كان الأمر – لقد قتل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ القبطي!!!

ولكن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم ييأس من رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ بل استدرك واستغفر، وندم وقال ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ واستغفر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ربَّه قائلًا: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: ١٦].

هكذا طلب من الله عَزَّ وَجَلَّ أن يغفر له، وربنا سبحانه للذنب والزلات غفار،

---

(١) انظر الحديث بذلك مطولًا عند البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤).

وقد قال عز وجل: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠] .

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال سبحانه: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٧٠].

فقبل الله توبة موسى عليه السلام ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

ونتعلم من هنا درسًا عظيمًا في عدم اليأس من رحمة الله عز وجل ومن سعة رحمة الله عز وجل.

وأيضًا أُذكِّر في هذا المقام بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾.

لقد تذكر موسى عليه السلام ، ورجع وتاب وأناب وذكر نعم الله العظيمة التي أنعم بها عليه فقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧] يا رب وكما أحسنت إليّ وأكرمتني وأنعمت عليَّ بنعمك التي لا يحصيها إلا أنت فلن أقابل الإحسان بإساءات مرة أخرى، ولن أتعاون مع الظلمة وأهل الشر والفساد، لن أكون مُعينًا للمجرمين على إجرامهم، ولا متعاونًا معهم على إثمهم وعدوانهم!!

لقد تعلمنا من نبي الله موسى عليه السلام عدم معاونة الظالمين على ظلمهم وذلك من قوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾.

وقد دلت على هذا المعنى أدلة كثيرة، منها:

❁ قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣].

❁ وقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾.

[المائدة: ٢]

❁ وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٧].

❁ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥].

❁ وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [القصص: ٨٦].

❁ وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

[الأنعام:٦٨]

❁ وقوله تعالى: ﴿ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠].

❁ وقال النبي ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»(١)، قيل: يا رسول الله كيف أنصره ظالمًا؟ قال: «تمنعه من الظلم».

ولنرجع إلى حال موسى عليه السلام بعد أن قتل نفسًا لم يؤمر بقتلها ترى ماذا كان من أمر موسى عليه السلام بعد أن قتل القبطي.

قال تعالى: ﴿ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ [القصص: ١٨].

وهكذا كل من يقتل ينتظر رد الفعل، ويصبح قلقًا مضطربًا لقد أصبح موسى عليه السلام بالمدينة خائفًا من فرعون وجنده، خائفًا أن يعلموا أن القاتل هو موسى عليه السلام، وأنه قتله لنصرة رجل من بني إسرائيل، فتقوى ظنونهم أن موسى منهم ويترتب على ذلك خطر عظيم يحل بموسى عليه السلام، وبعموم بني إسرائيل.

فأصبح مترقبًا الأخبار!! ينتظرها ويلتفت يمينًا وشمالًا لعلَّه يجد أحدًا يخبره بما يجرى على ألسنة الناس وبما يُقال!

(١) البخاري (حديث ٢٤٤٤)، ومسلم (٢٥٨٤).

فوجئ موسى عليه السلام بالإسرائيلي الذي كان يُقاتل بالأمس، والذي طلب نصرته ومساعدته، وكان سببًا للمشكلة التي حدثت، وللقتل الذي ارتكب فوجئ به موسى عليه السلام يقاتل رجلًا آخر، ويناديه، ينادي موسى عليه السلام ، يستصرخه، يصرخ ويستغيث بموسى عليه السلام ، فماذا كان؟

ماذا كان من موسى عليه السلام حين استصرخه الإسرائيلي!!

حين رأى الإسرائيلي يصيح ويصرخ ويستغيث!! ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ إنك رجل موقعٌ في الغواية، سبب للمشاكل خائب، غاوٍ في قتالك تقاتل من لا طاقة لك بقتاله، ولا تستطيع دفع شرِّه (غويٌّ مبين) ظاهر الغواية، وكذا مظهر –بأفعالك– لكونك غويٌّ أفعالك دالة على أنك غوي فقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ تحتمل معنيين:

أحدهما: مظهرٌ موضحٌ، أي مظهرٌ (لكونك غويّ) – مظهرٌ لغوايتك.

والثاني: ظاهر واضح، أي: ظاهر الغواية، وواضح الغواية.

۞ ونستفيد من هذا المقام أمورًا:

أحدها: أن الشخص ينبغي أن يكون مباركًا على أهله فلا يجلب لهم المشاكل ولا يوقعهم في الخطأ والزلل.

الثاني: أن الشخص لا يُقاتل من لا طاقة له بقتاله ومن لا يستطيع دفع شره، ودفع الشر كذلك بعد قتله.

الثالث: أن أقاربك وإن نصروك في موطنٍ فإنهم أيضًا يلومونك على ما تسببت لهم فيه من المشاكل.

وعلى أية حال فماذا كان لما استصرخ الإسرائيلي موسى عليه السلام ؟!، وما الذي سيفعله موسى عليه السلام ، وقد كان بالأمس يقول: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾؟!!

فكيف قال موسى ذلك بالأمس وهنا يريد أن يبطش بالذي هو عدو لهما؟؟!!

قال بعض أهل العلم: إنه لم يقدم المشيئة لما قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ والظاهر أنه لم يقدم المشيئة سهوًا!!

والذي ظهر لي –والله تعالى أعلم: أنه لم ير أن الإسرائيلي مجرمٌ، نَعم الإسرائيلي غويٌّ، ولكن ليس بمجرم، لكنه مظلوم فلعل هذا هو الذي ترجح لدى موسى عليه السلام فيما أرى – والله أعلم.

وعلى أية حال فأمرنا كما قال ربنا: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] أي: إذا نسينا أن نقول: إن شاء الله في وقت وتذكرنا أننا نسينا ذلك فلنقلها في الوقت الذي نذكر فيه.

وأيضًا: إذا عاهد الشخص ربه أن لا يكون ظهيرًا للمجرمين، فإن هذا لا يمنعه من نصرة مظلوم والله تعالى أعلم.

هذا، ولنرجع إلى الحال بعد أن عاتب موسى عليه السلام الإسرائيلي بقوله: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

اتجه موسى عليه السلام ناحية المعركة – ناحية موقع الاقتتال، اتجه موسى عليه السلام للقبطي الذي يقاتل الإسرائيلي، اتجه إليه موسى للبطش به كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩]

أما الجبار فالمراد به هنا الشرير القتال كثير القتل الذي لا يتواضع لأمر الله عز وجل.

ولكن مَنْ القائل: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ ..﴾.

الظاهر، والله أعلم قائل ذلك هو الإسرائيلي؛ توقع – لما أراد موسى أن يبطش بالذي هو عدوٌّ لهما – توقع أن موسى يريد قتله، ولم يكن موسى يريد ذلك، فقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾؟!

وهذا قول جمهور المفسرين، ولم يحك الطبريُّ قولاً سواهُ.

وقال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

«هذا قول الإسرائيلي من غير خلافٍ علمناه بين المفسرين».اهـ.

۞ وتقلَّده الحافظ ابن كثير أيضًا فقال: ثم عزم (أي: موسى) على البطش بذلك القبطي فاعتقد الإسرائيلي ـ لخوره وضعفه وذلته ـ أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك، فقال يدفع عن نفسه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِ﴾؟ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى عليه السلام، فلما سمعها ذلك القبطي لقَفها من فمه، ثم ذهب بها إلى باب فرعون فألقاها عندهم، فعلم بذلك، فاشتد حنقه، وعزم على قتل موسى فطلبوه، وبعثوا وراءه ليحضروه لذلك.

۞ وثمَّ قول آخر أن القائل هو القبطي الذي كان يقاتل الإسرائيلي لكن القائلون به قلةٌ - والله أعلم.

أعود قائلًا: فهكذا قدَّر الله الأمور، ولا يجري أمرٌ إلا بقدر الله عز وجل، فلم يكن موسى عليه السلام خرج من بيته يريد هذا الذي قد حدث، ولم يكن خرج يريد قتل نفس لم يؤمر بقتلها ولكن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون فنسأل الله أن يوفقنا لكل ما يحبه ويرضاه، وأن يعيذنا من طوارق الليل والنهار إلا طارقًا يَطرق بخير يا رحمن!!!

لقد زاع الخبر وانتشر، وتفشى.

انتشر في الناس، وعَلِمه فرعون، وعَلِمَه الملأُ من قومِ فرعون، انتشر فيهم أن موسى عليه السلام هو الذي قتل القبطي بالأمس.

فبدأت الاجتماعات، بل والمؤتمرات قد عقدت لقتل موسى عليه السلام ، ولكن وكما قال تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة: ٥١].

لقد قيض الله عز وجل لموسى عليه السلام من يُحذِّره ومن ينصحه ومَن يبين له

عواقب الأمور ويرشده إلى سبيل النجاة.

كل هذا من غير أن يكلفه موسى بشيء من ذلك ولكن الله يتولى الصالحين.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص: ٢٠] لم يذكر أن بين هذا الرجل وبين موسى عليه السلام صداقة ولا قرابه، ولا سابق معرفة[١] ولكن، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

جاء الرجل يجري مُسرعًا صوب موسى عليه السلام، فما هو إلا أن رآه إذا به يقول له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾ جماعة فرعون وأشراف قومه وأهل مجلسه وجنوده ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ يتآمرون لقتلك ويتشاورون في ذلك ويبحثون في شأنك وعلى ما يظهر أن كلمة الأكثرين منهم متجهة لقتلك ﴿فَٱخْرُجْ﴾ من هذه البلاد ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، ونعم فقد كان هذا الرجل من الناصحين لموسى عليه السلام فليس من الحكمة أن يواجه رجلٌ بمفرده دولةً يُحاربُها ولو كان من أشجع الناس!!

لقد اقتنع موسى عليه السلام بمقولة هذا الرجل الناصح وخرج من البلاد.

خرج موسى عليه السلام من مصر تاركًا أرضها وديارها وأهلها!

خرج منها خائفًا يترقب، يترقب الأخبار وينتظرها، وكذا يترقب أن يؤخذ وتقبض عليه الشرطة ويعاقب بما صنعه من قتل النفس!

ولكن مع خروجه ومع خوفه لم ينس ذِكر الله عز وجل، ولم ينس الدعاء الذي هو رأس كل خير!

لقد صاحب موسى عليه السلام الدعاء ولم يفارقه ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١]

---

(١) قد صح عن قتادة أنه قال في شأن هذا الرجل: (إنه مؤمن آل فرعون) ولكن لا دليل على ذلك وقتادة لم يرفع ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا داعي لتكلف مثل هذا القول، وقد أخرج الطبري أثر قتادة (٢٧٢٩٠) بإسنادٍ حسن.

هذا، وأعود فأُذكِّر في هذا المقام بما ورد عن ابن عباس في حديث الفتون[(١)] بما يتناسب مع هذا القدر من القصة.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

فَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَكَانَ مِنَ الرِّجَالِ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَخْلُصُ إِلَى أَحَدٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَهُ بِظُلْمٍ وَلَا سُخْرَةٍ حَتَّى امْتَنَعُوا كُلَّ الِامْتِنَاعِ.

فَبَيْنَمَا مُوسَى فِي نَاحِيَةِ الْمَدِينَةِ إِذَا هُوَ بِرَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ أَحَدُهُمَا فِرْعَوْنِيٌّ وَالْآخَرُ إِسْرَائِيلِيٌّ، فَاسْتَغَاثَهُ الْإِسْرَائِيلِيُّ عَلَى الْفِرْعَوْنِيِّ، فَغَضِبَ مُوسَى غَضَبًا شَدِيدًا لِأَنَّهُ تَنَاوَلَهُ وَهُوَ يَعْلَمُ مَنْزِلَةَ مُوسَى مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَحِفْظَهُ لَهُمْ لَا يَعْلَمُ النَّاسُ أَنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الرَّضَاعِ إِلَّا أُمُّ مُوسَى، إِلَّا أَنْ يَكُونَ اللهُ أَطْلَعَ مُوسَى مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا لَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهِ غَيْرَهُ، فَوَكَزَ مُوسَى الْفِرْعَوْنِيَّ فَقَتَلَهُ وَلَيْسَ يَرَاهُمَا أَحَدٌ إِلَّا اللهُ وَالْإِسْرَائِيلِيُّ، فَقَالَ مُوسَى حِينَ قَتَلَ الرَّجُلَ: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥] ثُمَّ قَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦] وَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ الْأَخْبَارَ، فَأُتِيَ فِرْعَوْنُ فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَتَلُوا رَجُلًا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ فَخُذْ لَنَا حَقَّنَا وَلَا تُرَخِّصْ لَهُمْ، فَقَالَ: ابْغُونِي قَاتِلَهُ وَمَنْ يَشْهَدُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْمَلِكَ وَإِنْ كَانَ صَفْوُهُ مَعَ قَوْمٍ لَا يَسْتَقِيمُ لَهُ أَنْ يُقِيدَ بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ وَلَا ثَبْتٍ، فَاطْلُبُوا لِي عِلْمَ ذَلِكَ آخُذْ لَكُمْ بِحَقِّكُمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَطُوفُونَ لَا يَجِدُونَ ثَبْتًا إِذَا مُوسَى قَدْ رَأَى مِنَ الْغَدِ ذَلِكَ الْإِسْرَائِيلِيَّ يُقَاتِلُ رَجُلًا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ آخَرَ، فَاسْتَغَاثَهُ الْإِسْرَائِيلِيُّ عَلَى الْفِرْعَوْنِيِّ، فَصَادَفَ مُوسَى قَدْ نَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، فَكَرِهَ الَّذِي رَأَى لِغَضَبِ الْإِسْرَائِيلِيِّ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْطِشَ بِالْفِرْعَوْنِيِّ، فَقَالَ لِلْإِسْرَائِيلِيِّ - لِمَا فَعَلَ أَمْسِ وَالْيَوْمَ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٨] فَنَظَرَ الْإِسْرَائِيلِيُّ إِلَى مُوسَى حِينَ قَالَ لَهُ مَا قَالَ فَإِذَا هُوَ غَضْبَانُ كَغَضَبِهِ بِالْأَمْسِ، فَخَافَ أَنْ يَكُونَ إِيَّاهُ أَرَادَ وَمَا أَرَادَ

---

(١) وقد سبقت الإشارة إليه قريبًا.

الْفِرْعَوْنِيَّ، وَلَمْ يَكُنْ أَرَادَهُ إِنَّمَا أَرَادَ الْفِرْعَوْنِيَّ فَخَافَ الْإِسْرَائِيلِيُّ فَحَاجَزَ الْفِرْعَوْنِيَّ، وَقَالَ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩] وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ إِيَّاهُ أَرَادَ مُوسَى لِيَقْتُلَهُ، وَتَنَازَعَا وَتَطَاوَعَا، وَانْطَلَقَ الْفِرْعَوْنِيُّ إِلَى قَوْمِهِ فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا سَمِعَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيِّ مِنَ الْخَبَرِ حِينَ يَقُولُ: أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩] فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ الذَّبَّاحِينَ لِيَقْتُلُوا مُوسَى، فَأَخَذَ رُسُلُ فِرْعَوْنَ الطَّرِيقَ الْأَعْظَمَ يَمْشُونَ عَلَى هَيْئَتِهِمْ يَطْلُبُونَ مُوسَى وَهُمْ لَا يَخَافُونَ أَنْ يَفُوتَهُمْ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ شِيعَةِ مُوسَى مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ فَاخْتَصَرَ طَرِيقًا قَرِيبًا حَتَّى يَسْبِقَهُمْ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، وَذَلِكَ مِنَ الْفُتُونِ يَا ابْنَ جُبَيْرٍ.

خروج موسى عليه السلام إلى مدين

وإلى أين أتجه موسى عليه السلام ؟!!

لقد جعل وجهه ووجهته إلى (مدين)[1] خرج عليه السلام من مصر خائفًا يترقب داعيًا ربَّه سائلًا إياه ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

لقد تبدلت أحوال موسى عليه السلام ، ودخل في الابتلاء.

لقد كان في قصر فرعون يأكل ويشرب مما لذَّ وطاب ويلبس ويكسى أحسن وأجمل الثياب!!

لقد كان مقربًا إلى فرعون وله الحظوة والمنزلة هنالك!! ولكن جوار الله أفضل من جوار فرعون!

وأمان الله خير من أمان فرعون!!

(١) وهي البلدة التي أرسل نبي الله شعيب عليه السلام إلى أهلها يدعوهم إلى الله وينهاهم عن تطفيف الكيل والميزان، وقد أهلكهم الله بتكذيبهم وعنادهم.

خرج موسى عليه السلام من مصر وهو حسن الظن بالله داعيًا راجيًا لقد توجه تلقاء مدين قائلًا: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢].

عسى الله عز وجل أن يرشدني ويهديني إلى الطريق السوي المستقيم إلى طريق السلامة والنجاة والأمان.

ولما وصل موسى عليه السلام إلى مدين، ووصل ماءها، وجد جماعة من الناس يسقون أنعامهم وأغنامهم، يسقون الإبل والغنم والبقر ونحو ذلك، ووجد بعيدًا عنهم امرأتين تمنعان أنعامهما وأغنامهما ونحو ذلك، تمنعانهما من الماء، حتى لا تصل الأنعام والأغنام إلى المياه حتى لا تختلط بأنعام الرعاة وأغنامهم.

حينئذٍ سألهما موسى عليه السلام ، حملته مروءته وشهامته على سؤالهما، سؤال بأدبٍ وإيجاز شديدين!!

سؤال على قدر الحاجة ﴿مَا خَطۡبُكُمَا﴾ [القصص: ٢٣] ما شأنكما تمنعان الأنعام والأغنام من الوصول للماء؟!!!

﴿قَالَتَا﴾ وبكل أدب وحشمة واحترام ﴿لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ لا نسقي أنعامنا وأغنامنا حتى ينصرف الرعاة.

فليست لنا قدرة على المزاحمة، ولسنا من أهل الاختلاط بالرجال، ولكننا نذهب إلى الماء إذا انصرف الرجال فنسقي أنعامنا ما تبقى من القوم!

ثم إن المرأتين قدمتا أجمل الاعتذار دون أن يسألهما موسى عليه السلام ، فافترضن سؤالًا وجِّه إليهما، ما الحامل لكما على صنيعكما من الخروج والإتيان إلى هذا المكان؟ ألم يكن هناك من يكفيكما هذا؟

هذا سؤال لم يطرح عليهما ولكنهما أجابتا عليه دفعًا للشبهة فقالتا: ﴿وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾ تعنيان إن سألتنا عن سبب خروجنا، فجوابنا أن الضرورة قد ألجأتنا وأخرجتنا، وإلا فلسنا من أهل الخروج من البيت، بل من أهل القرار في البيوت!

هذا، وفي قول المرأتين ﴿وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾ جواز إجابة السائل بأكثر مما سأل، فموسى عليه السلام لم يسألهما عن أبيهما.

وفي قول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للمرأتين ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ جواز مخاطبة الرجل للمرأة إذا أمنت الفتنة.

وأعود قائلًا: ماذا كان من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما أخبرته المرأتان بما أخبرتاه؟!

لم يتركهما موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هكذا، بل حملته شهامتُهُ ورجُولتُهُ، وقبل ذلك ديانتُه، كل ذلك حمله على أن يسقي لهما دون طلب أجرٍ منهما على ذلك!!

قال تعالى ذكره: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾!! [القصص: ٢٤].

لقد سقى لهما موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ثم لجأ إلى ظل يستظل به من حرِّ الظهيرة قائلًا سائلًا ربَّه راجيًا: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ محتاج يارب إلى خيرك، محتاج يا رب إلى فضلك وجودك وكرمك!! محتاجٌ يا رب إلى الطعام!!

هكذا شكا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حاله إلى الله عَزَّوَجَلَّ! ودومًا إلى الله المشتكى.

غريب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي أرض غربة، أهلها لم يظهر منهم الكرم، ولم تظهر منهم المروءة إلا من رحم الله.

فإلى مَن يشتكي، وإلى مَن يجأر، وإلى مَن يلجأ، وبمَن يستجير؟؟!

إن المؤمن يشتكي دومًا إلى الله ويجأر ويلجأ إليه ويستجير به، فهو الذي يكشف الضر ويجيب المضطر.

وأعود إلى ذِكر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ أوى إلى الظل قائلًا: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

لقد جاء الفرج، جاء اليسر بعد العسر، والحمد لله فربنا يجيب المضطر إذا دعاه.

لقد جاءته إحداهما تمشي على استحياء، تمشي والحياء يكسوها ويعلوها، وقد ظهر في منطقها ومشيتها وخطابها ولبسها.

وفيه منقبةٌ أيضًا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فحياؤها دالٌّ على حياء موسى، فلو كان موسى أجيرًا مبتذلًا ما استحيت منه المرأة هذا الحياء كله، ولكن حياؤه وكرمه

وهيبته ونجدته وشهامته حملتها على مزيد من الحياء، وإن كانت في الأصل ذات حياء.

هذا، وقد صح[١] عن أمير المؤمنين عمر رَضِوَلِيَّهُ عَنْهُ أنه قال: «جاءت تمشي على استحياء قائلةً بثوبها على وجهها، ليست بسلفعٍ من النساءِ ولاجَّة خرَّاجة».

❁ **وفي لفظ عند الحاكم:** عن عمر رَضِوَلِيَّهُ عَنْهُ: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾. قال: كانت تجيء وهي خراجةٌ ولاجةٌ، واضعةً يدها على وجهها.

قال صديق حسن خان في «فتح البيان»:

﴿تَمْشِى﴾ كائنةً ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ حالتي المشي والمجيء لا عند المجيء فقط، وهذا دليل على كمال إيمانها وشرف عنصرها؛ لأنها كانت تدعوه إلى ضيافتها ولم تعلم أيجيبها أم لا، فأتته مستحية.

ثم ماذا قالت هذه الحييةُ الكريمة لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

لقد أفصحت عن مرادها وسبب دعوتها لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وسبب دعوة أبيه له فقالت: وحتى لا يتسرب شكٌّ إلى قلب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ وفي هذا أدب من آداب التخاطب، يتمثل هذا الأدب في عدم جرح الأشخاص وإحراجهم عند الحديث معهم وعند إكرامهم.

ووجه ذلك أن المرأة لم تقل: إن أبي يدعوك للإحسانِ إليك ولإكرامك.

فتكون هذه منة منها عليه، ولكنها قالت: ليجزيك أجر ما سقيت لنا، فأنت الذي ابتدأت بالإحسان فأردنا أن نكافئك على إحسانك.

فالدِّقة في انتقاء الألفاظ مطلوبة؛ فينبغي أن تنتقي الكلمات وتختار الألفاظ والعبارات التي تؤدي إلى الغرض المطلوب.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسندٍ صحيح، والحاكم (٢/ ٤٠٧)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

لقاء موسى عليه السلام بالعبد الصالح

وننتقل إلى مشهد آخر، مشهد لقاء موسى عليه السلام بالعبد الصالح، وبداية هل هذا العبد هو نبي الله شعيب عليه السلام، فقد أرسل شعيب عليه السلام إلى مدين كما قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

وجواب ذلك: لم يصح في اسم هذا الشيخ خبرٌ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالإمساكُ عن تسميته أولى، وإن كان بعض أهل العلم قد قال: إنه شعيبٌ عليه السلام.

ولا دليل على هذا إلا التوافق في البلدة وأنها مدَيْن.

وقال آخرون: إنه يثرون. وقيل غير ذلك.

قال السعدي رحمه الله «تيسير الكريم الرحمن»:

وهذا الرجل ـ أبو المرأتين ـ صاحب مدين ـ ليس بشعيبٍ النبيُّ المعروف كما اشتهر عند كثير من الناس؛ فإن هذا قول لم يدل عليه دليل.

وغاية ما يكون: أن شعيبًا عليه السلام قد كانت بلده مدين، وهذه القضية جرت في مدين، فأين الملازمة بين الأمرين؟ وأيضًا: فإنه غير معلوم أن موسى أدرك زمان شعيب ـ فكيف بشخصه؟!

ولو كان ذلك الرجل شعيبًا لذكره الله تعالى، ولسمته المرأتان، وأيضًا: فإن شعيبًا – عليه الصلاة والسلام – قد أهلك الله قومَه بتكذيبهم إياه، ولم يبق إلا من آمن به، وقد أعاذ اللهُ المؤمنين به أن يرضوا لبنتي نبيهم، بمنعهما عن الماء وصد ماشيتهما، حتى يأتيَهُما رجل غريب فيحسن إليهما، ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيب ليرضى أن يرعى موسى عنده ويكون خادمًا له وهو أفضل منه وأعلى درجة، إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسى، فلا منافاة.

وعلى كل حال، لا يعتمد على أنه شعيبٌ النبيُّ، بغير نقل صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم، والله أعلم.

أعود قائلًا: وبعد أن أجاب موسى عليه السلام المرأة إلى ما دعته إليه من الذهاب إلى أبيها للمكافأة على السقيا ولإعطائه الأجر على ذلك، التقى موسى عليه السلام بالرجل الصالح والد المرأتين، وآنس موسى عليه السلام أمنًا وأمانًا وخلقًا ودينًا من الرجل الصالح، فأفشى موسى عليه السلام سرّه، وما كان من أمره للرَّجل الصالح، حكى له مُوسى الأمر بصراحة ووضوح وصفاءٍ ونقاءٍ صرَّح له موسى عليه السلام بكل التفاصيل!!!

إنه (أعني موسى عليه السلام) بين يدي رجلٍ صالح لا يُخشى منه بل يُستأنس برأيه ويسترشد به فقال له الرجل الصالح الشيخ الكبير لما استمع إلى قصته وما كان من أمره ﴿لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

أنت الآن في موضع أمن وأمان، قد سلمك الله وحفظك من شرور الشريرين وإفساد المفسدين وأذى الظالمين.

إنك الآن يا موسى ببلدة ليس لفرعون عليها يدٌ ولا سلطان!!

فحينئذٍ، ولما استمع الرجل الصالح إلى موسى عليه السلام وطمأنه قالت إحدى المرأتين لأبيها: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾ اتخذه أجيرًا عندنا يا أبتي[(١)]، وعللت طلبها بأمرين:

أولهما: أنه قوي.

والآخر: أنه أمين.

وهذان مطلوبان في العامل القوة على العمل، والأمانة فيه وهذا متكرر في كتاب الله عز وجل قال عفريت من الجن لسليمان عليه السلام في شأن عرش ملكة سبأ: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩].

---

(١) وهكذا نتعلم نقول: يا أبتي خيرٌ لنا من (يا بابا) فعلينا أن نحيي اللغة التي نزل بها القرآن وتحدث بها النبي عليه الصلاة والسلام.

فإن قيل: كيف عرفت المرأة قوته وأمانته؟

فأجاب العلماء على ذلك بما حاصله أنها رأته حمل الدلو الذي لا يكاد يحمله إلا مجموعة من الرجال، حمله بمفرده عليه السلام وأما الأمانة فمن كونه غض بصره عنها وتركها تمشي خلفه وترشده إلى الطريق الصحيح بحجرٍ تقذفه دون كلام، كذا قال بعض العلماء وسيأتي في حديث الفتون عن ابن عباس رضي الله عنهما فحينئذٍ وقد تعلمنا من هذه المرأة الحيية الكريمة درسًا بل دروسًا من حيائها وتوجيهها الحسن إذ علمتنا درسًا في انتقاء الأجير، وأن يكون قويًّا وأمينًا.

تعلمنا أيضًا درسًا من أبيها إذ قال لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧].

لقد عرض الرجل ابنته على موسى عليه السلام ليتزوجها، ففيه جواز عرض الرجل ابنته على الرجل الصالح للزواج بها.

وفي قوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾ ما يدل على أن الولي معتبر في الزواج.

قال القرطبي رحمه الله: في الآية دليل على أن النكاح إلى الولي لا حظَّ فيه للمرأة؛ لأن صالح مدين تولاه.

تنبيهان:

١- حديث: «**إن موسى** عليه السلام **آجرَ نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه**» حديث غير صحيح ولا ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كان المعنى يقتضيه.

٢- حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سأل جبريل: «**أى الأجلين قضى موسى؟ قال: أتمهما وأكملهما**» حديث ضعيف أيضًا غير ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فأعود قائلًا: إن الشيخ الكبير عرض على موسى عليه السلام أن يزوجه إحدى ابنتيه على أن يعمل أجيرًا عنده ثمان سنوات، فإن أتـمَّ موسى العشر فهذا من فضله وكرمه وإذا لم يتمها فلا تثريب عليه ولا يؤاخذ ولا يعاتب.

ثم إن الرجل الصالح طمأن موسى عليه السلام بقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

فيا له من أدب، ويا له من فهم سديد وخلق قويم.

لقد قبل موسى عليه السلام هذا العرض، قبل أن يعمل أجيرًا لمدة ثمان سنين لإعفاف نفسه في بلاد الغربة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الاتفاق ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ﴾ فسواء عليَّ إن بقيت عندك ثمان سنين أو بقيت عشر سنين ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾، لا يُعتدى عليَّ من طرف أحدٍ، ولا أُتهم بتقصير ولا إخلال، ولا نقض للعهد والميثاق.

وصدق الكليم موسى عليه السلام، وأحسن لهذا الاحتراز فإن نبينا محمد ﷺ قال: «**إنَّ أحقَّ الشروط بالوفاء ما استحللتم به الفروج**».

لقد قبل موسى العرض، عرض الزواج، وكلَّل موافقته على الشروط بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ شهيدٌ وحفيظ وهكذا تزوج موسى عليه السلام وهدأ باله واستقر حاله.

وحقًّا فإن مع العسر يسرًا إن مع العسر يسرًا.

لن يغلب عسرٌ يسرين.

والله يتولى الصالحين.

هذا، وهنا يطرح سؤال: أي الأجلين قضاهما موسى عليه السلام ثمان سنين أم عشرًا؟؟

أقول أولًا: لم يصح في هذا الباب خبر عن رسول الله ﷺ.

ثم أقول ثانيًا: قد أخرج البخاري[١] بسنده إلى سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: سَأَلَنِي يَهُودِيٌّ مِنْ أَهْلِ الحِيرَةِ أَيَّ الأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى، قُلْتُ: لاَ أَدْرِي، حَتَّى أَقْدَمَ

(١) البخاري (مع الفتح ٥/ ٢٦٨٤) وهو موقوف على ابن عباس كما ترى.

عَلَى حَبْرِ العَرَبِ فَأَسْأَلَهُ، فَقَدِمْتُ، فَسَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: «قَضَى أَكْثَرَهُمَا، وَأَطْيَبَهُمَا إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِذَا قَالَ فَعَلَ».

هذا، ويطيب لي أن أذكر القدر المتعلق بقصة موسى وقتله للقبطي وذهابه إلى مدين وزواجه بها كما أورده ابن عباس رضي الله عنهما في حديث الفتون الموقوف عليه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما:

فَخَرَجَ مُوسَى مُتَوَجِّهًا نَحْوَ مَدْيَنَ لَمْ يَلْقَ بَلَاءً قَبْلَ ذَلِكَ[1]، وَلَيْسَ لَهُ عِلْمٌ إِلَّا حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾ [القصص: ٢٢، ٢٣] يَعْنِي بِذَلِكَ حَابِسَتَيْنِ عَنْهُمَا، فَقَالَ لَهُمَا: مَا خَطْبُكُمَا مُعْتَزِلَتَيْنِ لَا تَسْقِيَانِ مَعَ النَّاسِ؟ فَقَالَتَا: لَيْسَ لَنَا قُوَّةٌ نُزَاحِمُ الْقَوْمَ، وَإِنَّمَا نَنْتَظِرُ فُضُولَ حِيَاضِهِمْ، فَسَقَى لَهُمَا، فَجَعَلَ يَغْتَرِفُ فِي الدَّلْوِ مَاءً كَثِيرًا، حَتَّى كَانَ أَوَّلَ الرِّعَاءِ، وَانْصَرَفَتَا بِغَنَمِهِمَا إِلَى أَبِيهِمَا، وَانْصَرَفَ مُوسَى عليه السلام، فَاسْتَظَلَّ بِشَجَرَةٍ وَقَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤] وَاسْتَنْكَرَ أَبُوهُمَا سُرْعَةَ صُدُورِهِمَا بِغَنَمِهِمَا حُفَّلًا بِطَانًا، فَقَالَ: إِنَّ لَكُمَا الْيَوْمَ لَشَأْنًا، فَأَخْبَرَتَاهُ بِمَا صَنَعَ مُوسَى، فَأَمَرَ إِحْدَاهُمَا أَنْ تَدْعُوَهُ، فَأَتَتْ مُوسَى فَدَعَتْهُ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ، قَالَ: لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، لَيْسَ لِفِرْعَوْنَ وَلَا لِقَوْمِهِ عَلَيْنَا سُلْطَانٌ، وَلَسْنَا فِي مَمْلَكَتِهِ، فَقَالَتْ إِحْدَاهُمَا: يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ، إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ، فَاحْتَمَلَتْهُ الْغَيْرَةُ عَلَى أَنْ قَالَ لَهَا: مَا يُدْرِيكِ مَا قُوَّتُهُ وَمَا أَمَانَتُهُ؟ قَالَتْ: أَمَّا قُوَّتُهُ، فَمَا رَأَيْتُ مِنْهُ فِي الدَّلْوِ حِينَ سَقَى لَنَا لَمْ أَرَ رَجُلًا قَطُّ أَقْوَى فِي ذَلِكَ السَّقْيِ مِنْهُ، وَأَمَّا الْأَمَانَةُ، فَإِنَّهُ نَظَرَ إِلَيَّ حِينَ أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ، وَشَخَصْتُ لَهُ، فَلَمَّا عَلِمَ أَنِّي امْرَأَةٌ صَوَّبَ رَأْسَهُ فَلَمْ يَرْفَعْهُ حَتَّى بَلَّغْتُهُ رِسَالَتَكَ، ثُمَّ قَالَ لِي: امْشِي خَلْفِي، وَانْعَتِي لِيَ

(١) يعني أنه كان مُنعَّمًا في بيت فرعون.

الطَّرِيقَ، فَلَمْ يَفْعَلْ هَذَا الْأَمْرَ إِلَّا وَهُوَ أَمِينٌ، فَسُرِّيَ عَنْ أَبِيهَا وَصَدَّقَهَا، وَظَنَّ بِهِ الَّذِي قَالَتْ، فَقَالَ لَهُ: هَلْ لَكَ ﴿أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧] فَفَعَلَ، فَكَانَتْ عَلَى نَبِيِّ اللهِ مُوسَى ثَمَانِي سِنِينَ وَاجِبَةً وَكَانَتْ سَنَتَانِ عِدَةً مِنْهُ، فَقَضَى اللهُ عَنْهُ عِدَتَهُ فَأَتَمَّهَا عَشْرًا، قَالَ سَعِيدٌ: فَلَقِيَنِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّصْرَانِيَّةِ مِنْ عُلَمَائِهِمْ، قَالَ: هَلْ تَدْرِي أَيُّ الْأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى؟ قُلْتُ: لَا، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ لَا أَدْرِي، فَلَقِيتُ ابْنَ عَبَّاسٍ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ ثَمَانِيًا كَانَتْ عَلَى نَبِيِّ اللهِ وَاجِبَةً، لَمْ يَكُنْ نَبِيُّ اللهِ ﷺ لِيَنْقُصَ مِنْهَا شَيْئًا، وَتَعْلَمُ أَنَّ اللهَ كَانَ قَاضِيًا عَنْ مُوسَى عِدَتَهُ الَّتِي وَعَدَهُ فَإِنَّهُ قَضَى عَشْرَ سِنِينَ، فَلَقِيتُ النَّصْرَانِيَّ فَأَخْبَرْتُهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: الَّذِي سَأَلْتَهُ فَأَخْبَرَكَ أَعْلَمُ مِنْكَ بِذَلِكَ، قُلْتُ: أَجَلْ وَأَوْلَى.

الفصل الثالث

تكليم الله عَزَّ وَجَلَّ لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ووحيه إليه

(٧٦) أحمر أسود

المفاجأة الكبرى والكرامة العظمى لنبي الله موسى عليه السلام

قضى موسى عليه السلام الأجل ووفَّى للشيخ الكبير، للعبد الصالح بالوعد والعهد، بل قال العلماء: إنه قضى أوفى الأجلين وأتمها كما صحَّ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقد سئل: أي الأجلين قضىٰ موسىٰ عليه السلام؟ قال: خيرهما وأوفاهما[1]، لقد اتفق مع الشيخ الكبير علىٰ أن يعمل أجيرًا (كصداقٍ) لمدة ثمان سنين، فإن أتم عشر سنين فمن عند موسىٰ عليه السلام فقضىٰ أوفى الأجلين وأتمهما، ثم تاقت نفسه للرجوع إلىٰ أهله بمصر، فقد طال زمن البعد عنهم ولا يدري شيئًا عن أخبارهم، ثم إنهم في قلقٍ علىٰ موسىٰ عليه السلام، لا يدرون أين ذهب!!

لا يدرون ماذا فُعل به!!

فللأهل حق، أن نطمئن عليهم ونطمئنهم، ونسأل عنهم وخاصة مع المشاكل التي حدثت وما سمعوه من أخبار!!

فمن ثَمَّ قرر موسى عليه السلام الرجوع إلى أهله بمصر فأخذ زوجته وأولاده وأغنامه، فكان قد اكتسب بعض المال، ووهبه الشيخ الكبير بعض الأغنام، واستودع الشيخ الكبير، والعبد الصالح واتجه إلى مصر، فيا لها من لحظات الفراق!!

ويا لها من لحظات الوداع!!

ولكن الدنيا ليست بمستقرٍّ لأحد، ففيها اجتماع الأحبة، وفيها أيضًا افتراقهم!!

استودع موسى الشيخ الكبير عند الله عز وجل وكذا ودَّعته ابنته زوجة موسى عليه السلام وانطلقا بالأبناء صوَّب مصر مارِّين بسيناء لتجاوزها، مُجتازين سيناء جبالها وسهولها وشعابها وهضابها ورمالها.

---

(١) الطبري بسندٍ صحيح بطرقه (٢٧٤٠١)، وقد تقدم عند البخاري.

غادر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بلاد مدين، ودخل سيناء وسار ما شاء الله أن يسير هو وزوجته وأولادهما، ومعهم الأغنام والأنعام، وانظر إلى الدنيا وأحوالها، فهذا الكريم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وكان قد تربى في قصر فرعون يأكل ويشرب ما لذَّ وطاب ويلبس أحسن وأجمل الثياب، ها هو يرعى الأغنام والأنعام!! وكل هذا ليس بضائرٍ للعبد ما دام مؤمنًا بالله مطيعًا له مستقيمًا على أمره!!

سار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سيناء ما يشاء الله أن يسير، وقطع ما شاء الله أن يقطع من الفيافي والقفار والشعاب والوديان والجبال، إحدى الليالي المظلمة، ليست بمقمرة، ليس فيها قمر ظاهر بل ظلامٌ شديد وبردٌ أشدّ ليلة باردةٌ، وقيل أيضًا: شاتية مطيرة(١)، ليلةً شديدةَ البرد، وشديدةَ الظلام، ضلَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الطريق لم يعرف أين الطريق، ولا يدري إلى أين يسير!!! لقد تاهوا في الطريق فلما يهتدوا إلى الطريق المعتاد!!.

خوف شديد على الأهل والأولاد!!

خوفٌ كذلك من البرد والظلام!!

يحاول موسى أن يشعل النار فلا تشتعل!!

يحاول أن يواري الزناد(٢) فلا تُوري شيئًا!!

يحاول أن يحك بعض الأحجار ببعضها كي تشتعل نارًا كما كان معهودًا من قبل فلا تتولد نيران.

البرد شديد!! والظلام شديد!! والخوف شديد!! ولا ملجأ من الله إلا إليه!!!

ولن يُضيِّع الله أولياءه، ودومًا فإن مع العسر يسرًا والله يتولى الصالحين!

---

(١) وليس هذا بمرفوعٍ إلى النبي ﷺ بل من الآثار.

(٢) بحك الأحجار ببعضها كي تشتعل النار، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾ [الواقعة: ٧١] أي التي توقدون.

هنا مفأجاة: تقدمة لمفاجأة أعظم وأعظم وأعظم!!

هنا وعند جبل الطور(١)!!

عند الجبل الغربي من الطور(٢)!! عند الجهة الغربية منه!!

عن يمينه(٣)!!

هنالك رأى موسى عليه السلام (نارًا) رأى نارًا تتأجج وهنالك كان الفرج، وذهب شيءٌ من الخوف!!

لقد استأنس موسى عليه السلام بالنار!

لقد شعر بالأُنس وأحسَّ به!

﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ﴾ قال لزوجته وأولاده: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾ انتظروا هاهنا!! تمهلوا لا تذهبوا معي!!

لم يرض أن يُعرِّض زوجته لخطرٍ، ولم يرض أن يُعرِّض أولاده أيضًا لذلك!

فقد يكون عند النار ما يخشى منه!!

فقال موسى عليه السلام لأهله ﴿ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾.

أبصرت نارًا!! رأيت نارًا!!

رأى نارًا في وسط الظلام الدامس!!

رأى نارًا والبرد شديد!!

فقال لأهله: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾ تمهلوا واصبروا واثبتوا مكانكم فلقد رأيت النار وأَبصرتها، وسأذهب ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ نستدل به على طريقنا!! خبرٌ يبين لنا أين نحن، وكيف نسير!!

---

(١) قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦].

(٢) قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤].

(٣) قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

خبرٌ أيضًا عن فرعون وقومه وماذا كان من أمرهم وهل البحث ما زال جاريًا عن موسى عليه السلام أم أنه قد انقطع؟!!

انتظروا وتمهلوا لعلي أيضًا أن آتيكم بجذوة من النار لعلكم تصطلون، لعلي آتيكم بجمرةٍ، بقطعة من النار، بشعلة من النار لعلكم تستدفئون بها في هذا البرد القارس.

انتظروا ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ [طه: ١٠] لعلي أجد هناك من يهديني إلى الطريق الصحيح ويرشدني إليه.

هكذا قال موسى عليه السلام لأهله.

ذهب موسى عليه السلام إلى ما يظن أنه نارٌ!!

ترك أهله وذهب!!

فماذا كان؟!! وما الذي سمعه موسى عليه السلام؟!!

۞ لقد كانت المفاجأة الكبرى والكرامة العظمى التي لم تكن تخطر لموسى عليه السلام على بال!!!

۞ لقد أُكرم بكرامة لم يسبقه أحدٌ من العالمين إليها!!!

لقد كلمه ربه عز وجل وناداه!!

لقد اصطفاه ربُّه واجتباه!!

أجمل نداءٍ، وخير نداءٍ، وأَحسن نداءٍ سمعه موسى عليه السلام في حياته!!، بل خير نداءٍ وأجمل نداءٍ، وأحسن نداءٍ سمعه بشرٌ على الإطلاق!

كرامةٌ عظيمة أكرم بها موسى عليه السلام

اقترب موسى عليه السلام من النار التي رآها واقترب واقترب!! وجد نارًا تتأجج في شجرة، فوقف متعجبًا ينظر ما الذي يحدث!! ما الأمر الذي يراه! فتقدم وتقدم فلما وصل إليها، لما أتاها وجاءها كانت المفاجأة الكبرى!!

لقد كلمه ربه عَزَّوَجَلَّ تكليمًا!!!

فيا لها من كرامةٍ ويا له من فضل!!

يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ(١):

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ: لَمَّا قَصَدَ مُوسَى إِلَى تِلْكَ النَّارِ الَّتِي رَآهَا فَانْتَهَى إِلَيْهَا، وَجَدَهَا تَأَجَّجُ فِي شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ مِنَ الْعَوْسَجِ، وَكُلُّ مَا لِتِلْكَ النَّارِ فِي اضْطِرَامٍ، وَكُلُّ مَا لِخُضْرَةِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ فِي ازْدِيَادٍ.

فَوَقَفَ مُتَعَجِّبًا، وَكَانَتْ تِلْكَ الشَّجَرَةُ فِي لِحْفِ جَبَلٍ غَرْبِيٍّ مِنْهُ عَنْ يَمِينِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤] وَكَانَ مُوسَى فِي وَادٍ اسْمُهُ «طُوَى» فَكَانَ مُوسَى مُسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةِ، وَتِلْكَ الشَّجَرَةُ عَنْ يَمِينِهِ مِنْ نَاحِيَةِ الْغَرْبِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى، فَأُمِرَ أَوَّلًا بِخَلْعِ نَعْلَيْهِ تَعْظِيمًا وَتَكْرِيمًا وَتَوْقِيرًا لِتِلْكَ الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَلَا سِيَّمَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ.

۞ وأقول (مصطفى): وماذا قال الله عَزَّوَجَلَّ لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين كلمه؟ ومن أين نودي؟

لقد ناداه ربه عَزَّوَجَلَّ من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة!!

البقعة المباركة من ناحية الشجرة!!

فهنالك مكان مبارك ناحية الشجرة عن يمينها!!

هنالك نودي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من مكان مبارك ووادٍ مبارك وعند جبل مبارك!!

لقد نودي من جانب الطور الأيمن.

وقال بعض العلماء كالقرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

إن المراد يمين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقال أيضًا: وكانت الشجرة في جانب الجبل عن يمين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أقبل من مدين إلى مصر، وقاله الطبري وغيره فإن

---

(١) قصص الأنبياء (ص ٣٥٤-٣٥٥) والعهدة عليه.

الجبال لا يمين لها ولا شمال.

لقد قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أُدني حتى سمع صريف القلم»[١].

أما عن هذا النداء وماذا كان فيه، فقد قال تعالى ذكره في سورة القصص:

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

وقال في النمل: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٨]، أي: سبحان الله الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩].

وقال تعالى في سورة طه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾.

[طه: ١١-١٦]

فلنتأمل هذا النداء المبارك الكريم!

ونتأمل ما فيه وما حواه، والتوفيق من الله، وبالله!!

❁ من مطالع هذا النداء قوله تعالى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ - يُعرِّفه بمن يكلمه ويُخبره بمن يُناديه- ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ سبحان الله!! وتبارك الله!! والحمد لله!! والله أكبر!! ربنا تبارك وتعالى يكلِّم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾.

وقد كان يلبس نعلًا فأُمر بخلعِهِ قال تعالى: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾.

---

(١) صح ذلك عنه عند الطبري.

وقال بعض العلماء: أي صريف القلم بكتابة التوراة، والله أعلم.

وقد اختلف العلماء في السبب الذي من أجله أُمر موسى ﷺ بخلع نعليه فقال عددٌ من أهل العلم إنها كانت من جلد حمار ميت فأمر أن يخلعها من أجل ذلك، وقيل إنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أُمر بخلعهما حتى يمس الأرض بقدميه فينال من بركة هذه الأرض.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ أي: المطهر المبارك، وقد قال بعض العلماء إن هذا هو التعليل لقوله: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أي: ذلك لكونك بالواد المقدس.

أما قوله تعالى: ﴿طُوًى﴾ فلأهل العلم فيه أقوال: أحدها: أنه قدس مرتين، فطوي أي: كُرر تقديسه، أي: بورك فيه مرتين وطُهِّر مرتين وقال بعض العلماء: إن قوله: ﴿طُوًى﴾ أي: أن الوادي مطويٌّ كطي البئر (أي: أن جوانبه مبطنة بالحجارة)، وقيل: إن طوى اسم للوادي فالله أعلم.

۞ هذا، وبعد أن أُخبر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بمن يكلمه!! وعلم أين هو!! وأمر بخلع نعليه!

فالذي يكلمه هو الله سبحانه وتعالى ربُّه وربُّ الخلق جميعًا يكلمه عند الوادي المقدس!

عند جبل الطور.

ومن عن يمين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ!!

ثم أُمر بخلع النعلين للأسباب التي ذكرت!!

وهذا مزيدٌ من أقوال العلماء في السبب الذي من أجله أمر الله عَزَّ وَجَلَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بخلع نعليه.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فلما أتى النار موسى، ناده ربه ﴿يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾.

واختلف أهل العلم في السبب الذي من أجله أمر الله موسى بخلع نعليه،

فقال بعضهم: أمره بذلك، لأنهما كانتا من جلد حمار ميت، فكره أن يطأ بهما الوادي المقدس، وأراد أن يمسه من بركة الوادي.

وأورد بسندٍ حسن: عن كعب، أنه رآهم يخلعون نعالهم ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ فقال: كانت من جلد حمار ميت، فأراد الله أن يمسه القدس.

وبسندٍ صحيح (بطريقين):

عن قتادة قال: حدثنا، أن نعليه كانتا من جلد حمار، فخلعهما ثم أتاه.

وقال آخرون: كانتا من جلد بقر، ولكن الله أراد أن يطأ موسى الأرض بقدميه، ليصل إليه بركتها، وأورد أقوالًا أُخر ثم قال:

قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: أمره الله تعالى ذكره بخلع نعليه ليباشر بقدميه بركة الوادي، إذ كان واديًا مقدسًا.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالصواب، لأنه لا دلالة في ظاهر التنزيل على أنه أمر بخلعهما من أجل أنهما من جلد حمار ولا لنجاستهما، ولا خبر بذلك عمن يلزم بقوله الحجة، وإن في قوله: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ بعقبه دليلًا واضحًا، على أنه إنما أمره بخلعهما لما ذكرنا.

ولو كان الخبر الذي حدثنا به بشر قال: ثنا خلف بن خليفة عن حميد بن عبد الله بن الحارث، عن ابن مسعود، عن نبيّ الله ﷺ، قال: «يَوْمَ كَلَّمَ اللهُ مُوسَى، كانَتْ عَلَيْهِ جُبَّةُ صُوفٍ وكساءُ صُوفٍ، وسَرَاوِيلُ صُوفٍ، وَنَعْلانِ مِنْ جِلْدِ حِمارٍ غيرِ مُذَكّى» صحيحا لم نعده إلى غيره، ولكن في إسناده نظر يجب التثبت فيه.

اختيار موسى عليه السلام كي يكون رسولاً

هنا بُشِّر بفضيلة عظمى أيضًا، بعد الفضيلة العظمى بتكليم الله عز وجل له لقد قال الله تعالى ذكره لموسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾.

اخترتك من بين سائر الخلق في زمانك!!!

اخترتك لنبوتي ورسالتي!!!

اخترتك لتكليمي!!

ولقد قال عز وجل لموسى عليه السلام ممتنًّا عليه في موطن آخر: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

لقد اختار الله عز وجل موسى واصطفاه وكلمه واجتباه!

وبعد أن أخبر الله عز وجل موسى باختياره له!!

أمر بالاستماع فقال: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾.

استمع لما يوحى إليك وأنصت وتفهَّم لما سنوحيه إليك من الكلام والأوامر والنواهي.

استمع فإن الذي يناديك هو الله رب العالمين وهو العزيز الحكيم.

قال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩].

فجديرٌ بموسى عليه السلام أن يستمع!

بل وفرض عليه الاستماع مع كونه أعظم إكرام له!

وجدير بنا جميعًا أن نستمع لما يوحيه الله لنبيٍّه وكليمه!

بل وواجب علينا ذلك!

واجب علينا ذلك فقد قال الله عز وجل للأبوين الكريمين (آدم وحواء) عند إخراجهما من الجنة: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ

أَعۡمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

واجب علينا أن نستمع، وقد قال تعالى للأبوين الكريمين: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

ولنرجع إلى الذي أوحاه الله عَزَّوَجَلَّ لكليمه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ الله قال: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣].

فهذا أول الوحي لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ [طه: ١٤].

هذا أفضل كلام وأطيبه وأخلصه!! وأفضل معتقدٍ وأصحه وأصوبه!! (لا إله إلا الله) كلمة التوحيد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بذلك وهذا أصل الأصول أُمر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يعلمه وأن يقرَّ به ويعمل به، ألا وهو أن الله عَزَّوَجَلَّ واحد لا شريك له ولا معبود بحقٍّ سواه.

فاعبده وحده لا تشرك به شيئًا فلا تصلح العبادة إلا له سبحانه!!

وهذا هو الفيصل بيننا كمسلمين وبين غيرنا من أهل الكفر فنحن نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وهم يزعمون أن الله له شريك أو صاحبة أو ولد فتعالى الله عن الشريك والصاحبة والولد، وعن كل ما لا يليق به علوًّا كبيرًا.

هذا، والذي أوحاه الله عَزَّوَجَلَّ إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي أوحاه إلى سائر الأنبياء!!

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

والآيات في هذا الصدد كثيرة جدًّا.

فهذا أول الوحي إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ!

يهتدي به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ!

ويهتدي به الخلق!

وهذا الذي نَسْعدُ به في الدنيا والآخرة!

نهتدي ونسعد ونسلم ونغنم ونعم في الدارين بتوحيدنا لخالقنا وعدم الإشراك به عَزَّوَجَلَّ ولا ينعقد لنا إسلام إلا بإقرارنا لله بالوحدانية ونفي الشريك عنه (لا إله إلا الله).

ثم يأتي التكليف الثاني: بعد الإخبار بوحدانية الله عَزَّوَجَلَّ والأمر بعبادته، ألا وهو الأمر بإقامة الصلاة يقول تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

صلِّ لتذكرني في صلاتك، فإن الصلاة شُرعت لإقامة ذِكر الله عَزَّوَجَلَّ!! كذا قال فريق من العلماء.

صلِّ وكبِّر، وهلِّل!

صلِّ قم لله واركع!

صلِّ واسجد واقترب من الله عَزَّوَجَلَّ!!

قلت: فالعبادات عمومًا شُرعت، ومن أجلِّ مقاصدها إقامة ذِكر الله عَزَّوَجَلَّ.

وقال آخرون من أهل العلم في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ معناه وأقم الصلاة إذا ذكرتها وأوردوا في ذلك حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها. لا كفارة لها إلا ذلك**»(١).

قال قتادة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾.

وفي رواية عند مسلم(٢):

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها**». فإن الله يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾.

❁ ❁ **ثم تذكير بأصل عظيم من الأصول**: ولفت النظر إليه للاعتناء به، فالإيمان به ركن من أركان الإيمان ويكفر من لم يؤمن به.

---

(١) البخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤).

(٢) عقب الرواية السابقة.

وبتذكره تنصلح الأعمال.

ألا وهو الإيمان بالبعث.

فها هو موسى عليه السلام يُذكِّر بها.

ويذكِّر بذلك الخلق أجمعون.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ [طه: ١٥].

وحاصل معناه: إن يوم القيامة آتٍ لا ريب فيه ولا شك في وقوعه وحدوثه، ولكن أُخفي وقت وقوعها عن الخلق، وأشدد في إخفائها ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ حتى عن نفسي كما قال تعالى: ﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ فمفاده وحاصله إن الساعة آتية ليجازي اللهُ كلَّ نفس بما عملت، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، أو يغفر الله له إلا الشرك بالله فإنه لا يُغفر.

ثم يأتي التحذير من مُنكري البعث!

التحذير من الكفرة باليوم الآخر!

التحذير من متبعي الأهواء والشهوات!!

يقول تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾ [طه: ١٦].

فلا يشغلنك عن العمل للآخرة شاغل!!

ولا يصرفنك عنها صارف!!

لا يصرفنك كافر بالبعث ومنكر له عن العمل للآخرة وعن الإيمان بها!!

لا يصدنك متبع للهوى عنها وعن العمل لها!!

فإنك إن صُرفت عنها وعن العمل بها وانشغلت عنها وكذبت بها واستكبرت فستهلك ولن ينصلح لك أمر، ولن يسلم لك حال!!!

قال الطبري رحمه الله: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ١٦﴾.

يقول تعالى ذكره: إن الساعة التي يبعث الله فيها الخلائق من قبورهم لموقف القيامة جائية ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ فعلى ضمّ الألف من أخفيها قراءة جميع قرّاء أمصار الإسلام، بمعنى: أكاد أخفيها من نفسي، لئلا يطلع عليها أحد، وبذلك جاء تأويل أكثر أهل العلم.

وقال آخرون: إنما هو (أَكَادُ أَخْفِيهَا) بفتح الألف من أخفيها بمعنى: أظهرها.

وأورد بإسناد صحيح عن سعيد بن جبير ومجاهد قالا: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ من نفسي.

قال أبو جعفر: والذي هو أولى بتأويل الآية من القول، قول من قال: معناه: أكاد أخفيها من نفسي، لأن تأويل أهل التأويل بذلك جاء، والذي ذُكر عن سعيد بن جبير من قراءة ذلك بفتح الألف قراءة لا أستجيز القراءة بها لخلافها قراءة الحجة التي لا يجوز خلافها فيما جاءت به نقلا مستفيضا.

وقوله: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ يقول تعالى ذكره: إن الساعة آتية لتجزى كلّ نفس: يقول: لتثاب كل نفس امتحنها ربها بالعبادة في الدنيا بما تسعى، يقول: بما تعمل من خير وشرّ، وطاعة ومعصية ، وقوله: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ يقول تعالى ذكره: فلا يردّنك يا موسى عن التأهُّب للساعة، من لا يؤمن بها، يعني: من لا يقرّ بقيام الساعة، ولا يصدّق بالبعث بعد الممات، ولا يرجو ثوابا، ولا يخاف عقابا. وقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ يقول: اتبع هوى نفسه، وخالف أمر الله ونهيه ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ يقول: فتهلك إن أنت انصددت عن التأهب للساعة، وعن الإيمان بها، وبأن الله باعث الخلق لقيامها من قبورهم بعد فنائهم بصدّ من كفر بها، وكان بعضهم يزعم أن الهاء والألف من قوله: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ كناية عن ذكر الإيمان، قال: وإنما قيل عنها وهي كناية عن الإيمان كما قيل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٥٣] يذهب إلى الفعلة، ولم يجر للإيمان ذكر في

هذا الموضع، فيجعل ذلك من ذكره، وإنما جرى ذكر الساعة، فهو بأن يكون من ذكرها أولى.

مفاجآت وآيات

أعظم الآيات التي أيَّد الله عَزَّوَجَلَّ بها نبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

وها هي مفاجأة عظيمة أخرى يتعرض لها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهي حقًّا آية عظمى ودلالة كبرى على نبوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ !!

وبين يدي التذكير بها لُفت نظر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فسئل سؤالًا للتنبيه، والله أعلم.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾[طه: ١٧]؟

سؤال على سبيل الإيناس، إدخال الأُنس على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعلى سبيل لفت النظر، وربي أعلم بالذي في يد موسى اليمنى!!

فأجاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله:

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا ﴾ أعتمد عليها في المشي، ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أضرب بها ورق الشجر كي يتساقط فتأكله غنمي ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ ﴾ حاجات ﴿أُخْرَىٰ ﴾ غير الاتكاء وغير الهش بها على الغنم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولعل قائلاً أن يقول: وما وجه استخبار الله موسى عما في يده؟ ألم يكن عالمًا بأن الذي في يده عصا؟ قيل له: إن ذلك على غير الذي ذهبت إليه، وإنما قال ذلك عزّ ذكره له إذ أراد أن يحوّلها حية تسعى، وهي خشبة، فنبهه عليها، وقرّره بأنها خشبة يتوكأ عليها، ويهشّ بها على غنمه، ليعرّفه قُدرته على ما يشاء، وعظم سلطانه، ونفاذ أمره فيما أحبّ بتحويله إياها حيَّة تسعى، إذا أراد ذلك به

ليجعل ذلك لموسى آية مع سائر آياته إلى فرعون وقومه.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾.

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن موسى: قال موسى مجيبا لربه ﴿هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ يقول: أضرب بها الشجر اليابس فيسقط ورقها وترعاه غنمي، يقال منه: هشّ فلان الشجر يهشّ هشًّا: إذا اختبط ورق أغصانها فسقط ورقها.

وأورد عدة آثار في تفسير أهش وأن المراد أضرب بها الشجر كي يسقط وتأكله غنمي.

وقال: وقوله: ﴿ وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ يقول: ولي في عصاي هذه حوائج أخرى.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾.

يقول تعالى ذكره: قال الله لموسى: ألق عصاك التي بيمينك يا موسى، يقول الله جل جلاله: فألقاها موسى، فجعلها الله حية تسعى، وكانت قبل ذلك خشبة يابسة، وعصا يتوكأ عليها ويهشّ بها على غنمه، فصارت حية بأمر الله.

قال الطبري:

قوله: ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴾ يقول تعالى ذكره قال الله لموسى: خذ الحية، والهاء والألف من ذكر الحية ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ يقول: ولا تخف من هذه الحية يقول: ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ يقول: فإنا سنعيدها لهيئتها الأولى التي كانت عليها قبل أن نصيرها حية، ونردّها عصا كما كانت.

يقال لكل من كان على أمر فتركه، وتحوّل عنه ثم راجعه: عاد فلان سيرته الأولى، وعاد لسيرته الأولى، وعاد إلى سيرته الأولى.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا برهان من الله تعالى لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومعجزة عظيمة، وخرق للعادة باهر، دال على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل.

فقوله: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له. وقيل: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي: أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها، فسترى ما نصنع بها الآن، ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ استفهام تقرير.

﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا ﴾ أي: أعتمد عليها في حال المشي ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾ أي: أهز بها الشجرة ليسقط ورقها، لترعاه غنمي.

أعود قائلًا: فماذا كان بعد أن لُفت نظر موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى ما في يده؟

ماذا كان من أمر هذه العصا التي في يمين موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟

لقد أمره الله عَزَّوَجَلَّ بإلقائها قال تعالى: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٩].

أي: هذه العصا التي في يدك يا موسى، ألقها ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ أي: صارت في الحال حَيَّة عظيمة، ثعبانًا طويلا يتحرك حركة سريعة، فإذا هي تهتز كأنها جان، وهو أسرع الحيات حركة، ولكنه صغير، فهذه في غاية الكبر، وفي غاية سرعة الحركة، ﴿ تَسْعَىٰ ﴾ أي: تمشي وتضطرب.

سبحان الله، لقد تحولت العصا إلى حية تسعى!!

لقد تحوَّلت إلى نوع عظيم مُخيف من أنواع الحيات!!

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: ١٠] اهتزت كأنها جان!!

نوع عظيم من أنواع الحيات سريعة الحركة إنها الآية الكبرى التي أوتاها موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والتي سيذهب بها إلى فرعون إذ الله قال: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾.

[النازعات: ٢٠]

إنها أعظم آية أُوتاها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأكبر آيةٍ !! ألا وهي :

العصا تتحول إلى حية تسعى!!

فماذا كان من أمر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما رأى هذه الآية العظيمة، والمعجزة الكبرى؟!!!

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ١٠].

انصرف مسرعًا هاربًا ولم يلتفت ولم يرجع على عقبيه، ولم ينظر خلفه فمن شدة خوفه فرَّ هاربًا منها!!

فناداه ربه عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ [القصص: ٣١].

إنك آمن لن ينالك سوءٌ!

ولن يلحقك مكروهٌ!

ولن تصاب بأذًى!

ناداه ربُّه عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل: ١٠-١١].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ (في قصص الأنبياء): وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص: ٣١]، أَي: قد صَارَتْ حَيَّةً عَظِيمَةً لَهَا ضَخَامَةٌ هَائِلَةٌ وَأَنْيَابٌ تصك، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ فِي سُرْعَةِ حَرَكَةِ الْجَانِّ، وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْحَيَّاتِ يُقَالُ لَهُ: الْجَانُّ والجنان، وَهُوَ لطيف وَلَكِن سَرِيعُ الِاضْطِرَابِ وَالْحَرَكَةِ جِدًّا، فَهَذِهِ جَمَعَتِ الضَّخَامَةَ وَالسُّرْعَةَ الشَّدِيدَةَ.

فَلَمَّا عَايَنَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ أَيْ: هَارِبًا مِنْهَا، لِأَنَّ طَبِيعَتَهُ الْبَشَرِيَّةَ تَقْتَضِي ذَلِكَ ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أَيْ: وَلَمْ يلْتفت، فناداه ربه قَائِلا لَهُ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ [القصص: ٣١].

فَلَمَّا رَجَعَ أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُمْسِكَهَا ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا

سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴾ [طه: ٢١]، فَيُقَالُ: إِنَّهُ هَابَهَا شَدِيدًا، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي كُمِّ مِدْرَعَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي وَسَطِ فمها. وَعند أهل الْكتاب: أمسك بِذَنَبِهَا، فَلَمَّا اسْتَمْكَنَ مِنْهَا إِذَا هِيَ قَدْ عَادَتْ كَمَا كَانَتْ عَصًا ذَاتَ شُعْبَتَيْنِ، فَسُبْحَانَ الْقَدِيرِ الْعَظِيمِ، رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ وَالْمَغْرِبَيْنِ!

آية أُخرى عظيمة أيضًا (اليد التي تخرج بيضاء من غير سوء)

أعود قائلًا هكذا طمأن الله موسى عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾[القصص:٣١]

وبقوله: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠].

وأمره أمرًا آخر بقوله: ﴿ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢].

وفي سورة النمل: ﴿ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢].

وفي سورة طه: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى﴾ [طه: ٢٢، ٢٣].

ومعنى ذلك: والله تعالى أعلم واضمم يدك فاجعل تحت عضدك أي: فيما بين الجسم والعضد قريبًا من تحت الإبط، تخرج يدك بيضاء تتلألأ من غير مرض فتلك معجزةٌ أخرى، افعل ذلك ضع يدك على هذا الوصف فذلك من معجزاتنا الكبرى الدالة على صدقك، وأنك رسول من عند الله عز وجل.

وبنحو ما ذُكر قال العلماء:

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: واضمم يا موسى يدك، فضعها تحت عضدك؛ والجناحان هما اليدان، كذلك رُوي الخبر عن أبي هُريرة وكعب الأحبار، وأما أهل العربية، فإنهم يقولون: هما الجنبان، وكان بعضهم يستشهد لقوله ذلك بقول الراجز:

أضُمُّهُ للصَّدْرِ والجَناحِ

وقولـه: ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ ذكـر أن موسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ كـان رجـلًا آدم، فأدخل يده في جيبه، ثم أخرجها بيضاء من غير سوء، من غير برص، مثل الثلج، ثم ردّها، فخرجت كما كانت على لونه.

وأورد الطبري عدة آثار تفيد أن قوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ معناه من غير برص.

وقال: وقوله: ﴿ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ يقول: وهذه علامة ودلالة أخرى غير الآية التي أريناك قبلها من تحويل العصا حية تسعى على حقيقة ما بعثناك به من الرسالة لمن بعثناك إليه، ونصب آية على اتصالها بالفعل، إذ لم يظهر لها ما يرفعها من هذه أو هي، وقوله: ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾ يقول تعالى ذكره: واضمم يدك يا موسى إلى جناحك، تخرج بيضاء من غير سوء، كي نريك من أدلتنا الكبرى على عظيم سلطاننا وقُدرتنا. وقال: الكبرى، فوحَّد، وقد قال: ﴿ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [طه: ٨، الحشر: ٢٤] وقد بيَّنا ذلك هنالك. وكان بعض أهل البصرة يقول: إنما قيل الكبرى؛ لأنه أريد بها التقديم، كأن معناها عنده: لنريك الكبرى من آياتنا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا بُرهان ثانٍ لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو أن الله أمره أن يدخل يده في جيبه، كما صرح به في الآية الأخرى، وهاهنا عبر عن ذلك بقوله: ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾ وقال في مكان آخر: ﴿ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ﴾ [القصص: ٣٢].

قال ابن كثير: وقوله: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ من غير برصٍ ولا أذى.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في قصص الأنبياء:

ثُمَّ أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِإِدْخَالِ يَدِهِ فِي جَيْبِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِنَزْعِهَا فَإِذَا هِيَ تَتَلَأْلَأُ كَالْقَمَرِ

بَيَاضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ، أَيْ مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ وَلَا بَهَقٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ [القصص: ٣٢]، قِيلَ مَعْنَاهُ: إِذَا خِفتَ فَضَعْ يَدَكَ عَلَى فُؤَادِكَ يَسْكُنْ جَأْشُكَ.

وَهَذَا وَإِنْ كَانَ خَاصًّا بِهِ، إِلَّا أن بركة الإيمان بِهِ حق بِأَن ينفع مَنِ اسْتَعْمَلَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الِاقْتِدَاءِ بِالْأَنْبِيَاءِ.

وَقَالَ فِي سُورَةِ النَّمْلِ: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [النمل:١٢]، أَيْ: هَاتَانِ الْآيَتَانِ وهما: الْعَصَا وَالْيَد، هما الْبُرْهَانَانِ الْمُشَارُ إِلَيْهِمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [القصص: ٣٢]، وَمَعَ ذَلِكَ سَبْعُ آيَاتٍ أُخَرُ.

فَذَلِكَ تِسْعُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي آخِرِ سُورَةِ سُبْحَانَ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠١، ١٠٢] وَهِيَ الْمَبْسُوطَةُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٣].

قلت مصطفى: فالمعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [النمل: ١٢].

حاصله: يقول الله تعالى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ أي: في فتحة

ثوبك، تلك الفتحة التي تُدخل فيها رأسك ثم أخرجها فإن أخرجتها خرجت بيضاء من غير مرض من غير برصٍ، خرجت بيضاء ناصعةً فهذه آية ومعجزة ضمن تسع آيات ومعجزات أيدناك بها وأرسلناك بها إلى فرعون وقومه فقد كانوا قومًا فاسقين، كافرين بالله جاحدين وحدانيته ونعمه.

قلت (مصطفى): وهاتان الآيتان (العصا التي تحولت إلى حية تسعى) و(اليد التي توضع في الجيب -وهو فتحة الصدر - فتخرج بيضاء من غير سوء) هما أعظم الآيات التي أيد الله عَزَّوَجَلَّ بها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال فريق من العلماء: وهما اللتان عناهما الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: آيتان وحُجتان، ودلالتان من ربك على نبوتك ورسالتك تذهب بهما إلى فرعون وملئه أي: وأشراف قومه ووجهائهم تدعوهم إلى الله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾، كفارًا خارجين عن الطاعة، طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾.

قيل: معناه - والله أعلم - ضع يدك على صدرك وقلبك حتى يذهب عنك الخوف.

فإن الشخص إذا اعتراه خوفٌ فوضع يده على صدره ذهب ذلك الخوف عنه.

وقوله: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾، قال مجاهد: من الفزع. وقال قتادة: من الرعب. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وابن جرير: مما حصل لك من خوفك من الحية.

والظاهر: أن المراد أعم من هذا، وهو أنه أمر عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب وهي يده، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف، وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يده على فؤاده، فإنه يزول عنه ما وجد أو يخف إن شاء الله.

وذكر القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ أقوالاً في المراد بضم الجناح :

منها: إذا هالك أمرُ يدك وشعاعها فأدخلها في جيبك واردها إليه تعد كما كانت.

ومنها: أمره الله أن يضم يده إلى صدره فيذهب عنه خوف الحية.

ومنها: أن المراد بضم الجناح السكون؛ كقوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء: ٤٢] يريد الرفق، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: ارفق بهم.

وثَمَّ أقوال أخر.

هذا، وقد أُخبر موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأنه سيؤيد بآيات أُخر بعد هاتين الآيتين، بسبع آيات أُخر -فيكون المجموع - مجموع الآيات التي أُيِّد بها موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تسع آيات.

قال تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ﴾ [النمل: ١٢].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ ﴾ [الإسراء: ١٠١]

وبشيء من التفصيل في ذِكر هذه الآيات التسع أقول في بيانها، وبالله التوفيق:

منها بالاتفاق العصا واليد، العصا التي تحوَّلت إلى حية تسعى، وتلك التي ضرب بها البحر فانفلق فكان كل فرقٍ كالطود العظيم، وتلك التي ضرب بها الحجر قائلًا: ثوبي يا حجر ثوبي يا حجر. واليد التي تخرج بيضاء من غير سوء.

فهاتان آيتان العصا واليد:

ومنها المذكورات في قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾ [الأعراف: ١٣٣] فهذه خمس آيات.

(الطوفان – الجراد – القمل – الضفادع – الدم)

وثنتـــان في قولـــه تعـــالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [الأعراف: ١٣٠] فالسنون سنوات الشدة التي حلَّت بهم ونزلت، بما فيها من فقر ومرض، ونقص الثمرات فهاتان اثنتان.

فيكون المجموع للمذكور كله تسع.

وهناك آيات تدخل ضمن المذكورات فالرجز المذكور في قولهم: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[الأعراف: ١٣٤] داخلة في السنين (سنوات الشدة) أو داخل في الخمس المذكورات والله أعلم.

وسيأتي الحديث أيضًا - إن شاء الله- عن انفلاق البحر.

تكليف موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون

هـذا، وبعـد أن رأى موسـى عليه السلام هـاتين الآيتـين المعجـزتين الظـاهريتين (العصا واليد) وأمره الله أن يضمم يده إلى جناحه من الرهب.

كلَّفه الله وأمره أن يذهب إلى فرعون يدعوه إلى الله عز وجل وإلـى أن يتطهـر مـن الشرك، فالشرك خبيث وأهله نجس!!

يذكِّره كذلك بالخوف من الله ومراقبته!

يدعوه كذلك إلى أن يكف أذاه عن بني إسرائيل الـذين استعبدهم وأذلهـم وأهانهم وذبَّح أطفالهم واستحيا نساءهم!!

قـال الله تعـالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾[النازعات:١٥-١٩]

وقـال تعـالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ تجاوز كل الحدود في الكفر والظلم واستعباد الخلق وذبح الأطفال وتسخير الرجال!!

وقـال تعـالى -وبعـد أن رأى موسـى الآيتـين العظيمتـين-: ﴿فَذَٰنِكَ﴾ أي:

فهذان ﴿بُرۡهَـٰنَانِ﴾ حجتان ودليلان على نبوتك ورسالتك فاذهب بهما إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قومًا فاسقين!

هكذا أُمر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالذهاب إلى فرعون وإنه لتكليف شديد، ولكنه يسيرٌ على من يسره الله عليه ووجه شدته أن فرعون قتَّال سفَّاح سفَّاك للدماء يدَّعى الربوبية، ولا يقر لله عَزَّوَجَلَّ بالإلهية، بل يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، ويقول: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]!!

إنه يُذبح الأبناء ويستحيي النساء ويسخر الرجال ويفرِّق بين الجماعات.

ومعه - كما أسلفت - وزير سوءٍ، وجندٌ خاطئون وشعبٌ جاهلٌ فاسق مطيعون!!

فكيف يواجه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كل هذه المشكلات والصعاب والمشاق.

وكيف يذهب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إليه أيضًا، وقد قتل منهم نفسًا وهم يبحثون عنه لقتله وللبطش به؟!

فحقًّا إنه أمرٌ عسيرٌ!! ولكنه يسيرٌ على من يسره الله عليه!! ولا حول ولا قوة إلا بالله! والله خيرٌ حافظًا وهو أرحم الراحمين.

وليس لموسى أن يرد أمر الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

سمعًا وطاعة لك يا ربنا!!

موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يسأل ربه عَزَّوَجَلَّ بعض المسائل

فحينئذٍ، وبعد أن كُلِّف موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالذهاب إلى فرعون سأل الله عَزَّوَجَلَّ بعض المسائل!

وأبدى بعض المخاوف التي في نفسه!!

سأل موسى ربَّه أن يشرح له صدره (أي: يشرح لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ صدره) فقال:

﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥]، وسِّعه واجعله فسيحًا رحيبًا لامتثال أوامرك واجتناب نواهيك، يقبل كل أمرٍ تأمر به بارتياحٍ وانشراح وسعادة!!

فانشراح الصدر للخير نعمةٌ من الله عَزَّوَجَلَّ.

قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، يوسعه لقبول تعاليم الإسلام عن رضًا وارتياح.

ولقد امتنَّ الله عَزَّوَجَلَّ على رسوله محمد ﷺ بذلك إذ قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] فالصدر إذا كان منشرحًا لشيء قَبِلَهُ واستوعبه وارتاح له.

فقوله: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥] فيه طلبٌ من الله عَزَّوَجَلَّ أن يوسِّع له صدره لقبول ما كلفه به، وأن يوسع صدره لمناقشة فرعون ودعوته وأن يُذهب عنه الخوف والرهبة من لقاء هذا الجبار، فلقاء الجبابرة الظلمة شديد، ويلزم له أن يستعين الشخص بالله عَزَّوَجَلَّ، فقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾.

❁ وطلب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا من الله عَزَّوَجَلَّ أن ييسر له أمره، فلن تتيسر الأمور إلا إذا يسَّرها الله عَزَّوَجَلَّ فقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي﴾ كل أموري وأمور دعوتي لفرعون وملاقاتي له.

❁ وسأل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ربَّه أمرًا آخر سأله أن يُطلق لسانه بفصيح القول وطيب القول، وذلك بأن يحلل عقدة من لسانه؛ فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ قال الأكثرون من العلماء: وأذهب هذه اللثغة التي في لساني كي ﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي﴾ يفهموا مرادي.

وكما أشرت قريبًا فمن أهل العلم من التمس سببًا لذلك، ألا وهو أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان بلسانه لثغة لما خُيِّر وهو طفل صغير بين التمرة والجمرة فاختار الجمرة فلثغت لسانه، وكان ذلك سببًا في إنجائه من فرعون لما أرادوا البطش به وهو طفل صغير، ففي حديث الفتون عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

في قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠] فذكر الحديث، وفيه قال: «فلما

ترعرع قالت امرأةُ فرعون لأمِّ موسى: أريدُ أن تريني ابني، فوعدتها يومًا تريها إياه، فقالت امرأة فرعون لخزانِها وقهارمتِها وظؤورتِها: لا يَبقينَّ أحدٌ منكم إلا استقبل ابني اليومَ بهدية وكرامةٍ لأرى ذلك فيه. وأنا باعثةٌ أمينًا يُحصي كل ما يصنع كلُّ إنسان منكم. فلم تزل الهدايا والكرامة والنحلَ تستقبله من حينِ خرجَ من بيت أمه إلى أن أُدخلَ على امرأةِ فرعونَ.

فلما دخل عليها بجلته وأكرمته وفرحتْ به، وأعجبَها وبجلت أمَّهُ بحسنِ أثرها عليه ثم قالت: لآتينَّ به فرعونَ فليبجلنَّهُ وليكرمنَّهُ.

فلما دخلتْ به عليه جعلتهُ في حجرهِ فتناولَ موسى لحيةَ فرعونَ، فمدها إلى الأرضِ. فقال الغواة أعداء الله لفرعون: ألا ترى إلى ما وعد الله إبراهيم نبيَّه؛ أنَّه يربُّك ويعلوكَ ويصرعُك؟! فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه، وذلك من الفتون ـ يابن جبير ـ بعد كلِّ بلاءٍ ابتليَ وأريد به فتونًا!

فجاءت امرأةُ فرعونَ تسعى إلى فرعون، فقالت: ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟ قال: ترينه يزعمُ أنه يصرعُني ويعلوني. قالت: اجعل بيني وبينك أمرًا تعرفُ الحقَّ فيه: ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقربهنَّ إليه، فإن بطشَ باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفتَ أنه يعقلُ وإن تناول الجمرتين ولم يُردِ اللؤلؤتين علمت أن أحدًا لا يؤثرُ الجمرتينِ على اللؤلؤتينِ وهو يعقلُ. فقرب ذلك، فتناول الجمرتين فانتزعوهما من يده مخافةَ أن تحرقاه.

فقالتِ المرأةُ: ألا ترى؟ فصرفهُ اللهُ عنهُ بعدما كان قد همَّ به، وكان اللهُ عَزَّوَجَلَّ بالغًا فيه أمرُهُ.

وهنا سؤال: هل زالت العقدة التي في لسان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ قال: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ وإن كانت قد زالت فكيف قال فرعون: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾؟

وجوابه: نعم قد زالت العقدة التي في لسان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وذلك لقوله تعالى:

﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قد سأل ربه أن يحلل عقدة من لسانه.

ولكن أشار بعض العلماء إلى أن القدر الذي زال عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو القدر الذي تيسر مع إزالته لموسى أن يبلغ قومه، فإن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ما سأل ربَّه إزالة العقدة بالكلية –كذا قالوا– وإنما سأل أن تُحلَّ العقدة بالقدر الذي يفقهوا به قوله ولو سأل ربَّه إزالتها بالكلية لأُزيلت.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴾ وذلك لما كان أصابه من اللثغ، حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، كما سيأتي بيانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العي، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة. ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخبارًا عن فرعون أنه قال: ﴿ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف: ٥٢] أي: يفصح بالكلام.

وقال الحسن البصري: ﴿ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴾ قال: حل عقدة واحدة، ولو سأل أكثر من ذلك أعطي.

موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يسأل ربّه عَزَّوَجَلَّ مسألة مباركة لأخيه هارون أن يكون رسولاً نبيًّا

لقد سأل الله عَزَّوَجَلَّ مسألة مباركة، دعوة مباركة لأخيه هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ فكان له فضلٌ – والفضل كله من الله عَزَّوَجَلَّ – كان له فضل على أخيه هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦﴾ [طه: ٢٩-٣٦].

ومعنى هذا: واجعل لي مُعينًا من أهلي، وهو هارون أخي قوِّني به واجعله

عونًا لي، واجعله نبيًّا مثلي كي نتعاون معًا على الصلاة لك وعلى تسبيحك وتعظيمك وتنزيهك عن كل ما لا يليق بك وكذا كي نذكرك كثيرًا إنك كنت بنا عالمًا وعلينا مطلعًا وشاهدًا، وبنوايانا عالمًا فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ قد أُعطيت ما سألت يا موسى، قد أجبتك إلى مرادك يا موسى.

وأعود قائلًا: إن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ سأل ربه تبارك وتعالى أن يُمده بأخيه هارون وذكر بعض العلل لذلك إذ قال: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝٣٣ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ .

[القصص: ٣٣، ٣٤]

فنعمةٌ من الله على العبد أن يجعل له معاونًا يعاونه على الخير وصديقًا يدلُّهُ على المعروف!

فهذا من منن الله على العبد، فالجليس الصالح والصديق الصالح والأخ الصالح يُعين على ذكر الله، يعين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يشقى به جليسه.

ومن هنا طلب موسى من الله عَزَّوَجَلَّ أن يُعينه بأخيه هارون طلب ذلك –والله أعلم– لإعانته ومؤازرته في الدعوة إلى الله كما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أي: غطاءً ومُعينًا وعونًا ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ فيما أرسلتني به ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.

طلب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من الله عَزَّوَجَلَّ أن يمن على أخيه هارون بالرسالة والنبوة لمؤازرته ومعاونته في الدعوة إلى اللهِ كما قال: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾.

[القصص:٣٤]

۞ ولمؤازرته ومعاونته في التقرب إلى الله بسائر الطاعات، كما قال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٣٣-٣٥].

وكما قال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩].

۞ ولكون هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ كان أفصح لسانًا وأبلغ في البيان، كما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤].

۞ وأيضًا فليست لفرعون منةٌ على هارون فلم يتربَّى هارون في بيته - والله تعالى أعلم.

فأجاب الله عَزَّوَجَلَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأعطاه سؤله

فقال تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥] سنقوي أمرك بإرسال الوحي إلى أخيك وجعله نبيًّا، وسنعينك به ونقويك به.

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا﴾ حجةً وبرهانًا وهيبةً في قلوب الأعداء ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بمكروه ولا سوءٍ.

﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي: بأدلتنا وحججنا وما أيدناكما به (من اليد والعصا) وغير ذلك ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ المنتصرون الذين لهم الغلبة على عدوهم وقيل في قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾: أي: بتبليغكما آياتنا).

فالداعي إلى الله يُحفظ بتبليغه دين الله!!!

كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

هذا، ولأهل العلم وجهان في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾.

أحدهما: أنها متصلة بما قبلها، فالمعنى: فلا يصلون إليكما بسبب آياتنا (حججنا وأدلتنا، ومعجزاتنا) التي أيدناكم بها، أي: بسبب العصا التي معك يا موسى وسائر الآيات التي أمددناك بها.

وأيضًا: فلا يصلون إليكما بسبب إبلاغكما آياتنا، فإنا حفظناكما.

فيؤخذ من ذلك أن الله يحفظ الدعاة إليه، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ

أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال النبي ﷺ: «احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ».

والوجه الآخر: أن الباء متصلة بما بعدها، فالمعنى: بآياتنا التي أيدناكما بها ستغلبون أعداءكم.

ثم إن الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال:

فالباء في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ من صلة غالبون، ومعنى الكلام: أنتما ومن اتبعكما الغالبون فرعونَ وملأه بآياتنا، أي: بحجتنا، وسلطاننا الذي نجعله لكما.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩]، أي: وكفى بالله ناصرًا ومعينًا ومؤيدًا. ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ولمن اتبعهما في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص:٥٣]، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:١٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر:٥١-٥٢].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بالأذى، ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، أي: تمتنعان منهم ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، فيجوز أن يوقف على ﴿إِلَيْكُمَا﴾ ويكون في الكلام تقديم وتأخير، وقيل: التقدير: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ بآياتنا.

فصل

في استجابة الله ﷻ لموسى ﵇ وتذكيره ببعض نعم الله ﷻ عليه وبعض الوصايا من الله لموسى وهارون ﵉ قبل لقائهما لفرعون وعند لقائه)

(١٠٨) أحمر أسود

أقول قد استجاب الله دعاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأيده بأخيه هارون، قال تعالى: ﴿قَدْ
أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ وذكَّر الله عَزَّوَجَلَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ببعض نعمه السابقة التي أنعم بها
عليه فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [طه: ٣٧] أي: قبل ذلك ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ
أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ
لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ
مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ
فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾
ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا
لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى
مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا
تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ
ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ
خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ
رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ
﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٣٨-٥٥].

وأسوق معاني مفردات الآيات السابقة وكذا ما ورد في شأنها عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في حديث الفتون في ثنايا تفسير الآيات المباركات.

أما عن معاني الكلمات فها هي:

الكلمة	معناها
﴿مَنَنَّا عَلَيْكَ﴾	أنعمنا عليك – تفضلنا عليك
﴿أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾	ألهمناها
﴿ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾	ضعيه في التابوت، وهو الصندوق

الكلمة	معناها
﴿ٱلْيَمِّ﴾	النيل، وقيل إنه البحر،والأول أشهر
﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾	قذفت محبتك في قلوب عبادي
﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾	لتُغذى وتُرى بمرأى مني
﴿يَكْفُلُهُۥ﴾	يطعمه ويسقيه ويرضعه ويأويه
﴿تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾	تستقر عينها ولا تتشتت، تهدأ وتستقر
﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾	اختبرناك اختبارًا- أخلصناك إخلاصًا- نقيناك تنقيةً
﴿فَلَبِثْتَ﴾	فمكثت
﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾	على موعدٍ، على وقت وقَّته الله وحدَّده
﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾	اخترتك لرسالتي
﴿وَلَا تَنِيَا﴾	لا تضعفا ولا تتباطآ عن ذكري
﴿طَغَىٰ﴾	تجاوز الحد في الطغيان والكفر العظيم
﴿لَّيِّنًا﴾	رفيقًا- فيه خفضه للجناح
﴿يَتَذَكَّرُ﴾	يتعظ
﴿يَخْشَىٰ﴾	يخاف عقوبة كفره
﴿يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾	يعاجلنا بالعقوبة بلا تثبت ولا تريث
﴿يَطْغَىٰ﴾	يتجاوز الحد في ظلمنا وظلم أهالينا وأقوامنا
﴿فَأْتِيَاهُ﴾	فاذهبا إليه
﴿ٱلْهُدَىٰٓ﴾	البيان الذي جئنا به من عند الله، ومنه التوراة- والهداية وغير ذلك
﴿كَذَّبَ﴾	كذب الأنبياء والرسل والكتب التي جاؤوا بها من عند الله
﴿وَتَوَلَّىٰ﴾	أعرض عن الطاعة
﴿مَهْدًا﴾	ممهدة- مهيئة للمسير عليها والسعي عليها

الكلمة	معناها
﴿وَسَلَكَ﴾	شقَّ- جعل
﴿سُبُلًا﴾	طرقًا
﴿أَزْوَاجًا﴾	أصنافًا
﴿شَتَّىٰ﴾	متعددة
﴿لِأُولِي النُّهَىٰ﴾	لأصحاب العقول النيرة الرشيدة
﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾	مرة أخرى

وقفات مع هذه الآيات السابقة وما فيها من الوصايا الجوامع

تضمنت الآيات المباركات -وكما سلف -تذكيرًا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بسابق نعم الله عليه وإحسانه عَزَّوَجَلَّ إليه، وذلك -والله أعلم- لتثبيت موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فالذي منَّ عليك يا موسى وتفضل عليك وحفظك في مهدك وفي صباك وعند شبابك سيحفظك ويسلمك ويُنجيك من آل فرعون إن شاء الله.

ومعنى الآيات إجمالاً والله تعالى أعلم:

ولقد تفضلنا عليك يا موسى مرة أخرى فضلًا عن التي تفضلنا بها عليك من تكليمك وإرسالك وتأييدك بالعصا وباليد التي تخرج بيضاء من غير سوء، تفضلنا عليك بأن أوحينا إلى أمك، وألهمناها وأنت في بطنها الذي ألهمناها، كما قد ورد مفصلًا في سورة القصص إذ الله قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهنا قال تعالى: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾، وهو صندوق وضع فيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أي اقذفي التابوت وفيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في النيل ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ أي فليلقه الماء، وماء النيل إلى الساحل ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ وهو فرعون عدو الله وعدو لبني إسرائيل ومنهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومننت

عليك يا موسى بأن ألقيت محبتك في قلب من رآك من هؤلاء، فألقيت محبتك في قلب امرأة فرعون فأحبته حبًّا عظيمًا وهو طفل في المهد كان هذا سببًا في سلامته ونجاته.

أما قوله تعالى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ فقد قال عددٌ من العلماء ولتُربى وتُغذى بمرأى من في بيت عدو الله فرعون واذكر شأن أختك معك إذ تمشي تتبعك كما قالت لها أمها: ﴿قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١١ ۞وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾.

[القصص: ١١، ١٢]

وهنا قالت: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾ أرشدكم من يكفله، ويأويه ويضمه ويُرضعه، فرجعناك إلى أمك لما حرمنا عليك المراضع كلها إلا ثدي أمك رجعناك إليها ﴿كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ﴾ كي تستقر عينها إذا رأت ولدها أمامها ولا تحزن على فراقه ﴿وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا﴾ وهو القبطي الذي قتلته، وقد ذكر شأنه في سورة النساء ﴿فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾ الذي أصابك من جراء قتله والخوف الذي أصابك من توقع بطش القوم بك ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ﴾ اختبرناك اختبارًا بعد اختبار وابتليناك ابتلاءً بعد ابتلاء وأخلصناك إخلاصًا بعد إخلاص.

هذا، وقد تقدم حديث الفتون الطويل وسيأتي تمامه في موضعه إن شاء الله.

هذا، وكما سلف فمن معنى ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ﴾ ابتليناك ابتلاءً، والابتلاء في هذا الموطن هو الابتلاء بقتل القبطي فلما كان ذلك، وعلمت أن القوم يأتمرون بك ليقتلوك ويسر الله لك من ينصحك فجاءك الناصح ينصحك خرجت متجهًا إلى مدين فمكثت في بلاد مدين وتزوجت منهم وبقيت بها سنوات ثم جئت يا موسى إلى هذا المكان في الوقت الذي قدَّره الله لك، ليوحى إليك فيه ويجعلك نبيًّا ورسولًا ويكلمك الله عنده.

وثمّ وقفة:

عنـد قولـه تعـالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ﴾ مفادهـا: أن الأمـور مقـدرة، ومقدرةٌ أن تقع في أزمنةٍ معينة قدرها الله سبحانه وتعالى فكما أن الآجال مقدرة إذ الله قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

وكذلك الأرزاق مقدرة، والأعمال مقدرة فكذلك تجري الأمور في أوقات قدرها الله فالمدة التي مكثها موسى عليه السلام مقدرة!! ووقت الوحي إليه مُقدر!

ومن قبل أيضًا إذا نظرنا إلى المدة التي مكثها يوسف عليه السلام في السجن فهي مقدرة إلى أن جعل الله عز وجل الملك يرى الرؤيا ويقول: ائتوني به أستخلصه لنفسي!!

ومدة بقاء الزوج مع زوجته مقدرة، وزمن فراقه لها مقدر!!

ووقت الشفاء مقدرٌ.

ووقت النصر والانتقام من الأعداء مقدر قال تعالى في شأن قوم لوط: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

ووقت الرزق بالذرية مقدر قال الخليل إبراهيم عليه السلام وبعد طول دعاء: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

[إبراهيم: ٣٩]

وهكذا فالأوقات التي تحدث فيها الأشياء كلها مقدرة!!

أما قوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ فمعناه، والله أعلم واخترتك يا موسى، وقد دبرت لك أمورك وهيئتها لك، واخترتك رسولًا من بين الناس في زمانك لتبليغ رسالتي والقيام بأمري ونهيي.

وصية عند لقاء فرعون، وصيته بالإكثار من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ

قال تعالى: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ ﴾ هارون الذي جعلته نبيًّا معك لما سألتني ذلك، اذهبا بحججي وبراهيني وأدلتي اذهب أنت وهو ولا تضعفا عن ذِكري، ولا تتكاسلًا عن ذكري بل أكثرا من ذِكري.

وهكذا يشرع الإكثار من ذِكر الله ودعائه عند لقاء العدو!

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وكذا يشرع الدعاء، قال تعالى في شأن طالوت ومن معه: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة: ٢٥٠].

أما قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ تجاوز الحد في الكفر والظلم والطغيان.

تجاوز الحد في الكفر، إذ قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

وتجاوز الحد في الظلم إذ كان يذبح الأبناء ويستحي النساء ويستعبد الرجال.

وصية أخرى بالقول اللين:

قال تعالى يوصي موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عند لقائهما لفرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، كلِّماه بالكلام الطيب اللين إذا كلمتماه، كلماه بكلامٍ لينٍ قريب سهل ليكون أبلغ في النفوس وأنفع.

كما قال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وكما قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم

بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

فهداية القوم مطلبٌ عظيم: وقد قال رسول الله ﷺ لعليٍّ لما أرسله إلى خيبر: «**على رسلك وادعهم إلى شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فلئن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حمر النعم**».

فالمراد من القول اللين أن يتذكر فرعون أو أن يخشى عقاب ربه عَزَّوَجَلَّ فحينئذٍ قال موسى وهارون عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾ أي: يعاجلنا بالعقوبة ولا يستمع إلى كلامنا وحجتنا أو أنه يزداد ظلمًا إلى ظلمه ويبطش بنا وبأهلينا فعندها قال تعالى: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ لا يخفى عليَّ شيء من الأمر فإنني أسمعكم وأراكم.

إنه وعدٌ حسنٌ من الله عَزَّوَجَلَّ لموسى وهارون عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ، وعدٌ بحفظهما، وتذكيرٌ بأنه عَزَّوَجَلَّ يسمع ويرى، لا يخفى عليه شيء من أمر موسى عَلَيْهِالسَّلَامُ، ولا من أمر هارون عَلَيْهِالسَّلَامُ، بل ولا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

حقًّا: ربنا ليس بغافل!!

حقًّا: ربنا يسمع ويرى!!

حقًّا: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠].

وقوله تعالى: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أي: لا تخافا منه، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى عليّ من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي.

الرسالة التي كُلِّف موسى وهارون عليهما السلام بحملها إلى فرعون

قال تعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾.

هذا والله أعلم قول الله سبحانه وتعالى لنبيه موسى ﷺ أمره عز وجل أن يذهب مع أخيه هارون عليه السلام إلى فرعون فيقولان له إنا رسولان من عند الله عز وجل الذي هو ربك فأرسل معنا قبيلتنا من بني إسرائيل حتى نخرج بهم من ديارك، ولا تسومهم سوء العذاب بتسخيرك لهم وإذلالك وامتهانهم وقد جئناك بما يدل على صدقنا وأننا رسولين من عند الله عز وجل ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾ والأمان والسلامة على من سلك طريق الهداية واتبع البيان الذي جئناه به من عند الله عز وجل وقد أوحى الله عز وجل إلينا أيضًا فيما أوحاه أن العذاب على من كذب الأنبياء، وكذب بالكتب المنزلة من عند الله وتولى عن الطاعة والامتثال لها.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ أرسلنا إليك يأمرك أن ترسل معنا بني إسرائيل، فأرسلهم معنا ولا تعذّبهم بما تكلفهم من الأعمال الرديئة ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ﴾ معجزة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ على أنه أرسلنا إليك بذلك، إن أنت لم تصدّقنا فيما نقول لك أريناكها، ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ يقول: والسلامة لمن اتبع هدى الله، وهو بيانه، يقال: السلام على من اتبع الهدى، ولمن اتبع بمعنى واحد.

يقول تعالى ذكره لرسوليه موسى وهارون: قولا لفرعون إنا قد أوحى إلينا ربك أن عذابه الذي لا نفاد له، ولا انقطاع على من كذب بما ندعوه إليه من توحيد الله وطاعته، وإجابة رسله ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ يقول: وأدبر مُعرضًا عما جئناه به من الحقّ.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ في الكلام حذف، والمعنى: فأتياه فقالا له ذلك. ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: خل عنهم. ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي: بالسخرة والتعب في العمل، وكانت بنو إسرائيل عند فرعون في عذاب شديد؛ يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، ويكلفهم من العمل في الطين واللبن وبناء المدائن ما لا يطيقونه. ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ قال ابن عباس: يريد العصا واليد. وقيل: إن فرعون قال له: وما هي؟ فأدخل يده في جيب قميصه، ثم أخرجها بيضاء لها شعاع مثل شعاع الشمس، غلب نورها على نور الشمس فعجب منها ولم يره العصا إلا يوم الزينة. ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ قال الزجاج: أي من اتبع الهدى سلم من سخط الله عَزَّوَجَلَّ وعذابه. قال: وليس بتحية، والدليل على ذلك أنه ليس بابتداء لقاء ولا خطاب.

الفراء: السلام على من اتبع الهدى ولمن اتبع الهدى سواء. ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ﴾ يعني الهلاك والدمار في الدنيا والخلود في جهنم في الآخرة. ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ أنبياء الله ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أعرض عن الإيمان. وقال ابن عباس: هذه أرجى آية للموحدين لأنهم لم يكذبوا ولم يتولوا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي: بدلالة ومعجزة من ربك، ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾ أي: والسلام عليك إن اتبعت الهدى.

ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتابًا، كان أوله: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين**»[١].

(١) البخاري (٢٦٨١، ٢٨٠٤)، ومسلم (١٧٧).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في قصص الأنبياء:

وَقَالَ اللهُ مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٤٩-٥٥].

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ: أَنَّهُ أَنْكَرَ إِثْبَاتَ الصَّانِعِ تَعَالَى قَائِلًا: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أَيْ: هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ وَقَدَّرَ لَهُمْ أَعْمَالًا وَأَرْزَاقًا وَآجَالًا، وَكَتَبَ ذَلِكَ عِنْدَهُ فِي كِتَابِهِ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، ثُمَّ هَدَى كُلَّ مَخْلُوقٍ إِلَى مَا قدره لَهُ، فطابق عمله فيهم على الْوَجْه الَّذِي قدره وَعلمه، وَقدرته وَقدره لكَمَال علمه.

وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١-٣] أَيْ: قَدَّرَ قَدَرًا وَهَدَى الْخَلَائِقَ إِلَيْهِ.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ يَقُولُ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى: فَإِذَا كَانَ رَبُّكَ هُوَ الْخَالِقُ الْمُقَدِّرُ الْهَادِي الْخَلَائِقَ لِمَا قَدَّرَهُ، وَهُوَ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ مِنْ أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ سِوَاهُ، فَلِمَ عَبَدَ الْأَوَّلُونَ غَيْرَهُ؟ وَأَشْرَكُوا بِهِ مِنَ الْكَوَاكِبِ وَالْأَنْدَادِ مَا قَدْ عَلِمْتَ؟ فَهَلَّا اهْتَدَى إِلَى مَا ذَكَرْتَهُ الْقُرُونُ الْأُولَى؟ ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] أَيْ: هُمْ وَإِنْ عَبَدُوا غَيْرَهُ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِحُجَّةٍ لَكَ، وَلَا يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ مَا أَقُول لأنهم جهلة مثلك، وكل شيء فَعَلُوهُ مُسْتَطَرٌ عَلَيْهِمْ فِي الزُّبُرِ، مِنْ صَغِيرٍ وكبير، وسيجزيهم على ذَلِك ربى عَزَّوَجَلَّ، وَلَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، لِأَنَّ جَمِيعَ أَفْعَالِ الْعِبَادِ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ فِي كِتَابٍ لَا يضل عَنهُ شيء وَلَا يَنْسَى رَبِّي شَيْئًا.

ثُمَّ ذَكَرَ لَهُ عَظَمَةَ الرَّبِّ وَقُدْرَتَهُ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ، وَجَعْلَهُ الْأَرْضَ مِهَادًا

وَالسَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا، وَتَسْخِيرَهُ السَّحَابَ وَالْأَمْطَارَ لِرِزْقِ الْعِبَادِ وَدَوَابِّهِمْ وَأَنْعَامِهِمْ، كَمَا قَالَ: ﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ أَيْ: لِذَوِي الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ، وَالْفِطَرِ الْقَوِيمَةِ غير السقيمة، فَهُوَ تَعَالَى الْخَالِق الرازق، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

[البقرة: ٢١-٢٢]

وَلَمَّا ذَكَرَ إِحْيَاءَ الْأَرْضِ بِالْمَطَرِ، وَاهْتِزَازَهَا بِإِخْرَاجِ نَبَاتِهَا فِيهِ نَبَّهَ بِهِ عَلَى الْمَعَادِ فَقَالَ: ﴿مِنْهَا﴾ أَيْ: مِنَ الْأَرْضِ ﴿ خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٥٥] كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

آيات من سورة الشعراء في بيان نداءِ الله عَزَّوَجَلَّ نبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾

[الشعراء: ١٠، ١١]

ومعناه: وإذ كلَّم الله عَزَّوَجَلَّ نبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وناداه ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ ﴾ [مريم: ٥٢] أن اذهب يا موسى إلى آل فرعون، إلى هؤلاء الظالمين الذين قال كبيرهم: إني ربكم الأعلى فصدقوه، الذين قال لهم كبيرهم: ما علمت لكم من إله غيري فاستمعوا له وأطاعوا وأقروا له وأذعنوا، اذهب إلى هؤلاء الذين طغوا وبغوا وقتلوا العباد وشردوهم وذبحوا الأبناء واستحيوا النساء، اذهب إلى هؤلاء قوم فرعون فذكرهم بوحدانية الله وحذرهم من سوء عاقبة أعمالهم وشركهم وكفرهم لعلهم يحذرون عذاب الله فيتقونه ويتقوا أسبابه.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: واذكر يا محمد إذ نادى ربك موسى بن عمران ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ يعني الكافرين قوم فرعون، ونصب القوم الثاني ترجمة عن القوم الأوَّل، وقوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ يقول: ألا يتقون عقاب الله على كفرهم به. ومعنى الكلام: قوم فرعون فقل لهم: ألا يتقون. وترك إظهار فقل لهم لدلالة الكلام عليه. وإنما قيل: ألا يتقون بالياء، ولم يقل ألا تتقون بالتاء؛ لأن التنزيل كان قبل الخطاب، ولو جاءت القراءة فيها بالتاء كان صوابًا، كما قيل: (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَيُغْلَبُونَ) و﴿سَتُغْلَبُونَ﴾.

وعن قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٢-١٤].

فحاصله أن هذه أمورٌ ذكرها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما كلَّفه الله عَزَّ وَجَلَّ بالذهاب إلى فرعون ونصحه وتذكيره وتحذيره من العاقبة السيئة إذا هو مات على كفره وطغيانه، وليست هذه الأمور التي ذكرها عَلَيْهِ السَّلَامُ طلبًا لمعافاته من الرسالة والتكليف ولكن ذكرها عَلَيْهِ السَّلَامُ طلبًا من الله عَزَّ وَجَلَّ وسؤالًا كي يتفضل عليه ربُّه عَزَّ وَجَلَّ ويكرمه بأن يجعل أخاه هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيًّا كي يُعينه على ما كلِّف به.

❁ أما عن معنى الآيات – والله أعلم – قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قال الله له: ﴿ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، قال ربِّ: إني أخاف أن يكذبوني فيما أدعوهم إليه، يصفونني بالكذب فإذا وصفوني بذلك ضاق صدري، ولم يستطع لساني أن يتكلم مدافعًا عني، وذلك للعقدة التي كانت في لسانه؛ إذ قال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي﴾ [طه: ٢٧-٢٨] فأرسل يا رب إلى هارون اجعله يا رب نبيًّا، كما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَـٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٣٠-٣٥].

وكما قال: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤].

أما قوله: ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ أي: ولقد قتلت منهم نفسًا فأخاف أن يقتلوني بها.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الشعراء: ١٥].

حاصل معناه: - والله تعالى أعلم-: أن الله عَزَّوَجَلَّ قال لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: لن يقتلك فرعون ولن ينالك بسوء فاذهب أنت وأخوك هارون بأدلتنا وحججنا فإننا مستمعون لكما ولما يُقال لكما. كما قال تعالى: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٦، ١٧].

حاصل معناه: أنه تكليف من الله عَزَّوَجَلَّ لموسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أن يذهبا إلى فرعون فيقولان له كلانا رسول من رب العالمين، كلانا رسول الله عَزَّوَجَلَّ، فاترك لنا بني إسرائيل نخرج بهم من بلادك والله أعلم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى:

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦-١٩].

قال ابن كثير في تفسيرها[(١)]:

تَقْدِير الْكَلَام: فَأتيَاهُ فَقَالَا لَهُ ذَلِك، وبلغاه مَا أرسلا بِهِ مِنْ دَعْوَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ يَفُكَّ أُسَارَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ قَبْضَتِهِ وَقَهْرِهِ وَسَطْوَتِهِ، وَيَتْرُكُهُمْ يَعْبُدُونَ رَبَّهُمْ حَيْثُ شَاءُوا، وَيَتَفَرَّغُونَ لِتَوْحِيدِهِ وَدُعَائِهِ وَالتَّضَرُّعِ لَدَيْه.

---

(١) قصص الأنبياء.

فتكبَّرَ فِرْعَوْنُ فِي نَفْسِهِ وَعَتَا وطغى، وَنظر إِلَى مُوسَى بعَين الازدراء والتنقص قَائِلًا لَهُ: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ ؟ أَيْ: أَمَا أَنْتَ الَّذِي رَبَّيْنَاهُ فِي مَنْزِلِنَا؟ وَأَحْسَنَّا إِلَيْهِ وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِ مُدَّةً مِنَ الدَّهْرِ؟.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِرْعَوْنَ الَّذِي بُعِث إِلَيْهِ هُوَ الَّذِي فر مِنْهُ، خلافًا لِمَا عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ: مِنْ أَنَّ فِرْعَوْنَ الَّذِي فَرَّ مِنْهُ مَاتَ فِي مُدَّةِ مُقَامِهِ بِمَدْيَنَ، وَأَنَّ الَّذِي بُعِثَ إِلَيْهِ فِرْعَوْنُ آخَرُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أَيْ: وَقَتَلْتَ الرَّجُلَ الْقِبْطِيَّ، وَفَرَرْتَ مِنَّا وَجَحَدْتَ نِعْمَتَنَا.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أَيْ: قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَي وينزل عَلَي، ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠-٢١].

ثُمَّ قَالَ مُجِيبًا لِفِرْعَوْنَ عَمَّا امْتَنَّ بِهِ مِنَ التَّرْبِيَةِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أَيْ: وَهَذِهِ النِّعْمَةُ الَّتِي ذَكَرْتَ، مِنْ أَنَّكَ أَحْسَنْتَ إِلَيَّ وَأَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تُقَابِلُ مَا اسْتَخْدَمْتَ هَذَا الشَّعْبَ الْعَظِيمَ بِكَمَالِهِ، وَاسْتَعْبَدْتَهُمْ فِي أَعْمَالِكَ وَخِدْمَتِكَ وَأَشْغَالِكَ.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨].

يَذْكُرُ تَعَالَى مَا كَانَ بَيْنَ فِرْعَوْنَ وَمُوسَى مِنَ الْمُقَاوَلَةِ وَالْمُحَاجَّةِ وَالْمُنَاظَرَةِ، وَمَا أَقَامَهُ الْكَلِيمُ عَلَى فِرْعَوْنَ اللَّئِيمِ، مِنَ الْحُجَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الْمَعْنَوِيَّةِ ثُمَّ الْحِسِّيَّةِ.

وَذَلِكَ أَنَّ فِرْعَوْنَ - قَبَّحَهُ اللهُ - أَظْهَرَ جَحْدَ الصَّانِعِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَزَعَمَ أَنَّهُ الْإِلَهُ ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣، ٢٤].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

وَهُوَ فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ مُعَانِدٌ، يَعْلَمُ أَنَّهُ عَبْدٌ مَرْبُوبٌ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ، الْإِلَهُ الْحَقُّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

وَلِهَذَا قَالَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ لِرِسَالَتِهِ، وَالْإِظْهَارِ أَنَّهُ مَا ثَمَّ رَبٌّ أَرْسَلَهُ: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لِأَنَّهُمَا قَالَا لَهُ: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] فَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمَا: وَمَنْ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ الَّذِي تَزْعُمَانِ أَنَّهُ أَرْسَلَكُمَا وَابْتَعَثَكُمَا؟ فَأَجَابَهُ مُوسَى قَائِلًا: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ يَعْنِي رب الْعَالمين خَالق هَذِه السَّمَوَات والأرض الْمُشَاهدَة، وَمَا بينهمَا من الْمَخْلُوقَات المتعددة، مِنَ السَّحَابِ وَالرِّيَاحِ وَالْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ الَّتِي يَعْلَمُ كُلُّ مُوقِنٍ أَنَّهَا لَمْ تَحْدُثْ بِأَنْفُسِهَا، وَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ مُوجِدٍ وَمُحْدِثٍ وَخَالِقٍ وَهُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

﴿قَالَ﴾ أَيْ: فِرْعَوْنُ ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ مِنْ أُمَرَائِهِ وَمَرَازِبَتِهِ[1] وَوُزَرَائِهِ، عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ والتنقص مَا قَرَّرَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ يَعْنِي: كَلَامَهُ هَذَا.

﴿قَالَ﴾ مُوسَى مُخَاطِبًا لَهُ وَلَهُمْ: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، مِنَ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ، وَالْقُرُونِ السَّالِفَةِ فِي الْآبَادِ، فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ نَفسه، وَلَا أَبوهُ وَلَا أمه، وَلَا يَحْدُثْ مِنْ غَيْرِ مُحْدِثٍ، وَإِنَّمَا أَوْجَدَهُ وَخَلَقَهُ رب الْعَالمين. وَهَذَانِ الْمَقَامَانِ هُمَا الْمَذْكُورَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ﴾.

[فصلت: ٥٣]

وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ لَمْ يَسْتَفِقْ فِرْعَوْنُ مِنْ رَقْدَتِهِ، وَلَا نَزَعَ عَنْ ضَلَالَتِهِ، بَلِ اسْتَمَرَّ عَلَى طُغْيَانِهِ وَعِنَادِهِ وَكُفْرَانِهِ: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٧، ٢٨] أَيْ: هُوَ الْمُسَخِّرُ لِهَذِهِ الْكَوَاكِبِ

(١) المرازبة: كلمة فارسية تعني رئيس، وهنا الفرسان البواسل المقدمين على الجند.

الزَّاهِرَةِ الْمُسَيرُ لِلأَفْلَاكِ الدَّائِرَةِ، خَالِقُ الظَّلَّامِ وَالضِّيَاءِ، وَرَبُّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، رَبُّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ، خَالِقُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالْكَوَاكِبِ السَّائِرَةِ، وَالثَّوَابِتِ الْحَائِرَةِ، خَالِقُ اللَّيْلِ بِظَلَامِهِ، وَالنَّهَارِ بِضِيَائِهِ، وَالْكُلُّ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ وَتَسْيِيرِهِ سَائِرُونَ، وَفِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ، يَتَعَاقَبُونَ فِي سَائِرِ الْأَوْقَاتِ وَيَدُورُونَ.

فَهُوَ تَعَالَى الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ.

فَلَمَّا قَامَتِ الْحُجَجُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَانْقَطَعَتْ شُبَهُهُ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ قَوْلٌ سِوَى الْعِنَادِ، عَدَلَ إِلَى اسْتِعْمَالِ سُلْطَانِهِ وجاهه وسطوته ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾.

[الشعراء: ٢٩-٣٣]

وَهَذَانِ هُمَا الْبُرْهَانَانِ اللَّذَانِ أَيَّدَهُ اللهُ بِهِمَا، وَهُمَا الْعَصَا وَالْيَدُ، وَذَلِكَ مَقَامٌ أَظْهَرَ فِيهِ الْخَارِقَ الْعَظِيمَ، الَّذِي بَهَرَ بِهِ الْعُقُولَ وَالْأَبْصَارَ، حِينَ أَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ، أَيْ عَظِيمُ الشَّكْلِ، بَدِيعٌ فِي الضَّخَامَةِ وَالْهَوْلِ، وَالْمَنْظَرِ الْعَظِيمِ الْفَظِيعِ الْبَاهِرِ، حَتَّى قِيلَ: إِنَّ فِرْعَوْنَ لما شَاهد ذَلِك وعاينه، أَخذه رهب شَدِيدٌ وَخَوْفٌ عَظِيمٌ، بِحَيْثُ إِنَّهُ حَصَلَ لَهُ إِسْهَالٌ عَظِيمٌ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ مَرَّةً فِي يَوْمٍ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ لَا يَتَبَرَّزُ فِي كُلِّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً، فَانْعَكَسَ عَلَيْهِ الْحَالُ. وَهَكَذَا لَمَّا أَدْخَلَ مُوسَى عليه السلام يَدَهُ فِي جَيْبِهِ وَاسْتَخْرَجَهَا، أَخْرَجَهَا وَهِيَ كَفِلْقَةِ الْقَمَرِ تَتَلَأْلَأُ نُورًا يَبْهَرُ الْأَبْصَارَ، فَإِذَا أَعَادَهَا إِلَى جيبه واستخرجها رَجَعَتْ إِلَى صِفَتِهَا الْأُولَى.

وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ لم يَنْتَفِع فِرْعَوْن - لَعنه الله - بِشَيْء مِنْ ذَلِكَ، بَلِ اسْتَمَرَّ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَأَظْهَرَ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ سِحْرٌ، وَأَرَادَ مُعَارَضَتَهُ بِالسَّحَرَةِ، فَأَرْسَلَ يَجْمَعُهُمْ مِنْ سَائِرِ مَمْلَكَتِهِ وَمن هم فِي رَعِيَّتِهِ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَدَوْلَتِهِ، كَمَا سَيَأْتِي بَسْطُهُ وَبَيَانُهُ فِي مَوْضِعِهِ، مِنْ إِظْهَارِ اللهِ الْحَقَّ الْمُبِينَ وَالْحُجَّةَ الْبَاهِرَةَ الْقَاطِعَةَ عَلَى فِرْعَوْنَ

وَمَلَئِهِ، وَأَهْلِ دَوْلَتِهِ وَمِلَّتِهِ. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

آيات من سورة النمل في تكليم الله عَزَّوَجَلَّ نبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

أولاً ذكر الآيات المباركات:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝١٢﴾ [النمل: ٨-١٢].

معنى مفردات الآيات:

الكلمة	معناها
﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾	تقدس وتعاظم وكثر الخير الوارد منه
﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾	تنزه الله (عن كل ما لا يليق به)
﴿جَآنٌّ﴾	حية عظيمة، نوع من الحيات سريعة الحركة
﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾	انصرف هاربًا مسرعًا
﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾	لم يلتفت – لم يرجع
﴿لَدَيَّ﴾	عندي
﴿بَدَّلَ حُسْنًۢا﴾	عمل أعمالًا صالحة يبتغي بها وجه الله بعد أن عمل سوءًا
﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾	من غير برصٍ ولا مرض
﴿تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾	تسع حجج واضحات – تسع معجزات

قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

معناه، والله تعالى أعلم، فلما جاءها ناداه ربُّه عَزَّوَجَلَّ وكلمه أن بورك مَنْ في

النار، أي تقدَّس من في النار وتعاظم وتكاثر الخير الوارد من قبله، والمراد بالنار – عند كثير من العلماء – النور الذي هو الحجاب، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[1].

وقال بعض أهل العلم: إن المراد بالنار النار حقيقة إذ الله قال أن بورك من في النار.

وأما قوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: وبارك الله فيمن حولها شرفهم الله بهذا الشرف، كما قال في آية أخرى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣] والمراد بالذين حولها الملائكة عليهم سلام الله وكذا موسى عليه السلام، وأيضًا الوادي المكان فهو وادٍ مقدس كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢].

أما قوله تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: وتنزَّه عن كل نقصٍ وعيب وتنزَّه عن الشريك والمثيل والنِّد والصاحبة والولد وتنزَّه عن كل ما لا يليق به، فهو ربُّ العالمين رب السموات والأرض وما بينهما.

وقال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ يقول: فلما جاء موسى النار التي آنسها ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

وأورد الطبري بسندٍ فيه مقال عن ابن عباس، قال: ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ يقول: قُدِّس.

واختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ فقال بعضهم: عني جلّ جلاله بذلك نفسه، وهو الذي كان في النار، وكانت النار نوره تعالى ذكره في

---

(١) انظر مسلم (حديث ١٧٩).

قول جماعة من أهل التأويل.

وأورد أثرًا ضعيف الإسناد عن ابن عباس: في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ يعني نفسه؛ قال: كان نور ربّ العالمين في الشجرة.

قال الطبري: وقال آخرون: بل معنى ذلك: بوركت النار.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واختلف أهل التأويل في معنى النار في هذا الموضع، فقال بعضهم: معناه: النور، كما ذكرت عمن ذكرت ذلك عنه.

وقال آخرون: معناه النار لا النور.

وقوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يقول: ومن حول النار. وقيل: عَني بمن حولها: الملائكة.

وقال آخرون: هو موسى والملائكة.

وقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول: وتنزيهًا لله رب العالمين، مما يصفه به الظالمون.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لرسوله ﷺ مذكرًا له ما كان من أمر موسى، كيف اصطفاه الله وكلمه، وناجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة، والأدلة القاهرة، وابتعثه إلى فرعون وملئه، فجحدوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ أي: اذكر حين سار موسى بأهله، فأضل الطريق، وذلك في ليل وظلام، فآنس من جانب الطور نارًا، أي: رأى نارًا تأجج وتضطرم، فقال: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: عن الطريق، ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: تتدفؤون به. وكان كما قال، فإنه رجع منها بخبر عظيم، واقتبس منها نورًا عظيمًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: فلما أتاها رأى منظرًا هائلًا عظيمًا؛ حيث انتهى إليها، والنار

تضطرم في شجرة خضراء، لا تزداد النار إلا توقدًا، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء.

قال ابن عباس وغيره(١): لم تكن نارًا، إنما كانت نورًا يَتَوَهَّج.

وفي رواية عن ابن عباس(٢): نور رب العالمين. فوقف موسى متعجبًا مما رأى، فنودي أن بورك من في النار. قال ابن عباس: أي قُدّس. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: من الملائكة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود -وهو الطيالسي- حدثنا شعبة والمسعودي، عن عمرو بن مُرَّة، سمع أبا عُبَيْدة يحدث، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل**». زاد المسعودي: «**وحجابه النور -أو النار- لو كشفها لأَحْرَقَتْ سُبُحات وجهه كل شيء أدركه بصره**»(٣). ثم قرأ أبو عُبَيْدة: ﴿أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيح لمسلم، من حديث عمرو بن مُرَّة، به.

وقوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: الذي يفعل ما يشاء ولا يشبه شيئًا من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم، المباين لجميع المخلوقات، ولا يكتنفه الأرض والسموات، بل هو الأحد الصمد، المنزه عن مماثلة المحدثات.

وقوله تعالى: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ

(١، ٢) ولم أقف على سند صحيح عن ابن عباس بهذا، والأسانيد التي وقفت عليها فيها مقال.

(٣) مسلم (٢٤٩ و ٢٩٥ حديث ١٧٩) بنحوه.

حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١﴾﴾؟

معناه -والله أعلم-: أن الله عَزَّوَجَلَّ أكرم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بكرامة عظيمة جدًّا، وهي كونه ناداه وكلمه بلا واسطة قائلًا له: إنه أنا الله العزيز الذي لا يُغلب، الحكيم في كل شيء يشرعه ويقضيه.

ثم إن الله عَزَّوَجَلَّ أمره بأن يلقي عصاه التي في يده، فألقاها عَلَيْهِ السَّلَامُ، فتحوَّلت إلى حية عظيمة كما قال تعالى: ﴿فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ٢٠] والجان نوعٌ من أنواع الحيات العظيمة شديدة الحركة، فلما رآها موسى هكذا انصرف مسرعًا هاربًا ولم يلتفت وراءه ولم يرجع فناداه ربُّه عَزَّوَجَلَّ: يا موسى لا تخف مما رأيت إني لا يخاف عندي المرسلون الذين اصطفيتهم واجتبيتهم، فهؤلاء لا يخافون لكن من ظلم منهم فإني أُخيفه بسبب ما صدر منه من ظلم، وقد قال بعض أهل العلم هاهنا: إن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما خاف لكونه قد ظلم بقتل نفسٍ لم يُؤمر بقتلها.

ورُوي عن بعض أهل العلم أن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كانت تذنب فتعاقب، أي: من ارتكب منهم شيئًا من الذنب عُوقب به، ونُقل هذا بأسانيد فيها بعض المقال عن بعض التابعين، وقال به بعض المفسرون.

هذا، ومن العلماء من قال: إن المعنى تمَّ عند قوله: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾.

أي: إني لا يخاف عندي رسلي إلا من ظلم منهم فإنه يخاف بسبب ذنبه.

أما قوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فقال بعض أهل العلم: إنه هنا مستقرٌّ محذوف مفهوم من السياق، والمعنى: أما من ظلم من سائر خَلْقي ثم عمل عملًا صالحًا مبتغيًا به وجه الله فإني غفورٌ لذنبه، رحيمٌ به.

هذا، ومن العلماء من قال إن قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ إلى هنا تم الكلام ثم استثناء منقطع حاصل معناه لكن من ظلم من سائر خلقي، ثم

بدل حُسنًا بعد سوء فإني غفور له والله أعلم.

ويبقى هنا سؤال واردٌ على من قال إن من ظلم من المرسلين يُخيفه الله عَزَّوَجَلَّ بسبب ظلمه، ألا وهو إن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قتل النفس التي لم يؤمر بقتلها استغفر من ذلك إذ قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِي﴾ فطلب المغفرة وغفر الله له إذ الله قال: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ فكيف يُخيفه الله وقد غفر له؟؟؟!!!

وجواب ذلك فيما أرى والله أعلم أن موسى آنذاك لم يكن أُوحي إليه، وإنما أُرسل عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد تكليم ربِّه عَزَّوَجَلَّ له، فمن ثمَّ لم يكن قد علم أن الله غفر له فبقي خائفًا من عقوبة ذنبه، ولحقه شيء من هذا الخوف في هذا المقام.

أو يُقال: إن الله عَزَّوَجَلَّ غفر له بعد هذه الوقائع.

أو يُقال: إنه لبيان أن من ظلم فإنه يخاف من عاقبة ظلمه.

أو يُقال: إلا من ظلم فإنه يخاف وإن كنت قد غفرت له والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيله لموسى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ في نقمته من أعدائه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيره في خلقه.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ في الكلام محذوف تُرك ذكره، استغناء بما ذُكِر عما حذف، وهو فألقاها فصارت حية تهتز ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ يقول: كأنها حية عظيمة، والجانّ: جنس من الحيات معروف.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ يقول تعالى ذكره: ولَّى موسى هاربًا خوفًا منها ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ يقول: ولم يرجع. من قولهم: عقب فلان: إذا رجع على عقبه إلى حيث بدأ.

وأورد الطبري بإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ قال: لم

يرجع ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ قال: لما ألقى العصا صارت حية، فرعب منها وجزع، فقال الله: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ قال: فلم يرعو لذلك، قال: فقال الله له: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١] قال: فلم يقف أيضًا على شيء من هذا حتى قال: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١] قال: فالتفت فإذا هي عصا كما كانت فرجع فأخذها ثم قوي بعد ذلك حتى صار يرسلها على فرعون ويأخذها.

وقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ يقول تعالى ذكره: فناداه ربه: يا موسى لا تخف من هذه الحية، إني لا يخاف لديّ المرسلون. يقول: إني لا يخاف عندي رسلي وأنبيائي الذين أختصهم بالنبوّة، إلا من ظلم منهم، فعمل بغير الذي أذن له في العمل به.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

وقال الطبري – بعد أن أورد أقوالًا وبعض القراءات –:

قوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ استثناء صحيح من قوله: ﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ منهم فأتى ذنبًا، فإنه خائف لديه من عقوبته، وقد بيَّن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنى قيل الله لموسى ذلك، وهو قوله قال: إني إنما أخفتك لقتلك النفس.

فإن قال قائل: فما وجه قيله إن كان قوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ استثناءً صحيحًا، وخارجًا من عداد من لا يخاف لديه من المرسلين، وكيف يكون خائفا من كان قد وُعد الغفران والرحمة؟ قيل: إن قوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ كلام آخر بعد الأوّل، وقد تناهى الخبر عن الرسل من ظلم منهم، ومن لم يظلم عند قوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ ثم ابتدأ الخبر عمن ظلم من الرسل، وسائر الناس غيرهم، وقيل: فمن ظلم ثم بدّل حسنًا بعد سوء فإني له غفور رحيم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز الحكيم، الذي عزَّ كل شيء وقهره وغلبه، الحكيم في أفعاله

وأقواله.

ثم أمره أن يلقي عصاه من يده؛ ليُظهر له دليلًا واضحًا على أنه الفاعل المختار، القادر على كل شيء. فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حَيَّةً عظيمة هائلة في غاية الكبر، وسرعة الحركة مع ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ والجان: ضرب من الحيات، أسرعه حركة، وأكثره اضطرابًا - وفي الحديث نَهْيٌ عن قتل جِنَّان البيوت - فلما عاين موسى ذلك ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: ولم يلتفت من شدة فرقه ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي: لا تخف مما ترى، فإني أريد أن أصطفيك رسولًا وأجعلك نبيًّا وجيهًا.

وقوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا استثناء منقطع، وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على شيء ثم أقلع عنه، ورجع وأناب، فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] والآيات في هذا كثيرة جدًّا.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إنها قُلبت له أولًا حية صغيرة فلما أنس منها قُلبت حية كبيرة وقيل: انقلبت مرة حية صغيرة ومرة حية تسعى وهي الأنثى ومرة ثعبانًا وهو الذكر الكبير من الحيات وقيل: المعنى انقلبت ثعبانًا تهتز كأنها جانٌّ، لها عظم الثعبان وخفة الجان واهتزازه وهي حية تسعى وجمع الجان جنان ومنه الحديث: «نهى عن قتل الجنان التي في البيوت».

وقال القرطبي أيضًا في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وتمَّ الكلام ثم استثنى استثناء منقطعًا فقال: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ وقيل: إنه استثناء من محذوف.

والمعنى: إني لا يخاف لدي المرسلون وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم ﴿إِلَّا

مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ ﴾ فإنه لا يخاف.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي الآية قول آخر: وهو أن يكون الاستثناء متصلًا والمعنى إلا من ظلم من المرسلين بإتيان الصغائر التي لا يسلم منها أحد سوى ما روي عن يحيى بن زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وما ذكره الله تعالى في نبينا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في قوله: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ٢] ذكره المهدوي واختاره النحاس وقال: علم الله من عصى منهم يُسرّ الخيفة فاستثناه فقال: ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ ﴾ فإنه يخاف وإن كنت قد غفرت له. الضحاك: يعني آدم وداود عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ. الزمخشري: كالذي فرط من آدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف ومن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بوكزه القبطي.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ لأن جميع المخاوف مندرجة في قضائه وقدره وتصريفه وأمره، فالذين اختصهم الله برسالته واصطفاهم لوحيه لا ينبغي لهم أن يخافوا غير الله خصوصًا عند زيادة القرب منه والحظوة بتكليمه.

﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ ﴾ أي: فهذا الذي هو محَلُّ الخوف والوحشة بسبب ما أسدى من الظلم وما تقدم له من الجُرْم، وأما المرسلون فما لهم وللوحشة والخوف؟ ومع هذا من ظلم نفسه بمعاصي الله، وتاب وأناب فبدل سيئاته حسنات ومعاصيه طاعات فإن الله غفور رحيم، فلا ييأس أحد من رحمته ومغفرته فإنه يغفر الذنوب جميعًا وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها.

هذا، وقوله تعالى لنبيه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو يكلمه هنالك عند الطور ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ أدخلها في فتحة الثوب التي عند الصدر – الفتحة التي يدخل منها الرأس فهذا الجيب، ﴿تَخْرُجْ ﴾ يدك إذا أدخلتها وأخرجتها ﴿بَيْضَآءَ﴾ تتلألأ نورًا وبياضًا ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ من غير مرض، من غير برص من غير داء ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ

فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓ﴾ أي: أنها آية من إحدى آيات تسع -وسيأتي بيانها إن شاء الله- إلى فرعون وقومه ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ خارجين عن الطاعة والفسق في هذا المقام بمعنى الكفر، والله تعالى أعلم.

سؤال وجوابه:

هل هذه الآية، إدخال اليد في الجيب وإخراجها بيضاء من غير سوء، داخلة في التسع أم أن الآيات تسعٌ غيرها، وهي العاشرة؟

وجوابه: الظاهر – والله أعلم- أنها داخلة في تلك الآيات التسع فقوله: ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ﴾ معناه والله أعلم ضمن تسع آيات.

وإن كان من العلماء من قال إنها تسعٌ غيرها وهي العاشرة، لكن ما قدمته أولى، ولقد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ﴾ [الإسراء:١٠١].

سؤال عارض وجوابه:

أما عن السؤال فهو هل كلَّم الله نبيَّنا محمدًا ﷺ؟

وجوابه: قال بذلك بعض أهل العلم.

❁ ففي حديث المعراج عند مسلم[(١)] من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ...» فذكر الحديث.

❁ وفيه: أن النبي ﷺ قال: «**فرجعت إلى ربي فقلت: يارب خفف عن أمتي....الحديث**».

❁ وفيه أيضًا قال: «**فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً. وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ**

---

(١) مسلم (حديث ١٦٢) وانظر أيضًا البخاري (٣٤٩ وغيره).

عَشْرًا. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً».

قال: «فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ. فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ» فقال رسول الله ﷺ «فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ».

تلخيص لما تضمنه نداء الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالواد المقدس المبارك

لقد استُهل النداء بقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ ثم حث على خلع النعلين فإنه (أي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ) بالواد المقدس ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾.

والذي يخاطبه رب العالمين –كما سبق- وليس ربًّا لموسى فقط ففي سورة القصص ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

لقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ بوحدانيته وعدم وجود شريك له، وهو أهلٌ لذلك، وقد شهد لنفسه بذلك ونشهد لربنا وخالقنا بذلك، نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وأمر الله بعبادته وحده لا شريك له إذ قال: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾.

[طه: ١٤]

وفي سورة النمل يقول تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩].

لقد أمر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بأعظم ركن بعد التوحيد، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾.

وفي الآيات تذكير بالساعة وتحذير من الانشغال عنها ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

ثم إن الله عَزَّوَجَلَّ أظهر لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعض الآيات التي أيده بها كالعصا التي

تحولت إلى حية تسعى واليد التي تخرج بيضاء من غير سوء.

ثم تكليف لموسى وهارون عليهما السلام بالذهاب إلى فرعون ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه: ٢٤].

وفي الآية الأخرى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ [طه: ٤٧].

وفي آية النازعات: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ١٧-١٩].

فهذا شيء من الذي كلم الله عز وجل به موسى عليه السلام وأرشده إليه في أول تكليم كلمه به أثناء رجوعه من بلاد مدين مارًّا بسيناء عند جبل الطور والوادي المقدس.

تلخيصٌ لمطالب موسى عليه السلام من ربّه عز وجل

وبيان بعض مسائله ومخاوفه في هذا الموقف والمشهد المبارك؟!!

أما عن مطالبه ومسائله، فقد سأل الله عز وجل ما يلي:

١ - ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾﴾ [طه: ٢٥].

٢ - ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾ [طه: ٢٦].

٣ - ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ [طه: ٢٧، ٢٨].

٤ - ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٢٩-٣٢]

وفي سورة القصص قال: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص: ٣٤].

وأما المخاوف التي تَخوف منها موسى عليه السلام وأبداها فمنها:

خشي موسى وهارون عليهما السلام من تسرع فرعون بالبطش بهما وذلك في قولهما: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥].

أي نخاف أن يبادر بعقوبتنا ولا يسمح لنا بالكلام، بل يُعجِّل بقتلنا ويتجاوز في ظلمنا والبطش والتنكيل بنا.

لقد خشى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يوصف بأنه كذاب فقال: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾﴾ [الشعراء: ١٢].

خشى من عدم سعة الصدر، وعدم تحمل التكذيب فقال: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ [الشعراء: ١٣].

أي ولا أستطيع الكلام، إما لضيق الصدر، أو للحياء، أو للثغة التي ذكر بعض العلماء أنها كانت في لسانه.

خشي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من أن يُقتل بالنفس التي قتلها فقال: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤].

وقال في سورة القصص: ﴿رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣]

تأملات

هذا، وبعد أن أكرم الله عَزَّ وَجَلَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الكرامات العظيمة والمناقب الجليلة.

بعد أن أكرمه الله واصطفاه بتكليمه واصطفائه!!

بعد أن أكرمه بأن اختاره رسولًا لتبليغ آياته!!

بعد أن أكرمه وأيده بالآيات الباهرات المعجزات!!

بعد أن أكرمه بإجابة دعائه وشرح صدره وحل عقدةٍ من لسانه، وبأن جعل أخاه هارون نبيًّا!!

وأهله هنالك ينتظرونه!

أهله الذين تركهم قائلًا لهم: ﴿ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩].

فهم هنالك في البرد والخوف ينتظرون!!

ينتظرون رجوع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يطمئنهم ويخبرهم ويأتيهم بما يستدفئون به من البرد.

ولقد طال الانتظار!!، ولكن تحول الأمر من حال إلى حال وهم لا يدرون، لا يعلمون ماذا حدث لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فيا ترى كيف كان حالهم وقد رجع إليهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؟!!

رجع إليهم بهذه الكرامات والمعجزات!

يا ترى كيف كان حال زوجته وماذا كان من أمرها وزوجها يقص عليها ما منَّ الله به عليه.

فيا قرة عينها، ويا قرة عين هذه الأسرة الكريمة بعائلها.

يا قرة أعينهم، وقد اصطفى الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالرسالة والتكليم!

حقًّا إن هذا لهو الفضل المبين!!، إن هذا لهو الفضل العظيم!! ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس: ٥٨].

إنه لشرفٌ لهم وفضلٌ وكرامة.

إن الأبناء والبنات إذا كان أبوهم رجلًا صالحًا نالهم من صلاحه نصيب، بل ونصيب عظيم في الدنيا والآخرة، إذا هم تبعوه بإيمان، وإن قلّت أعمالهم شيئًا ما عنه.

لقد حفظ الله الأبناء بصلاح أبيهم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

لقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

فيا هنيئًا ثم هنيئًا لآل موسى!!

الفَصْلُ الرَّابِع

لقاء نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بفرعون

إجمالاً وتفصيلاً

❁ **ويحوى هذا الفصل ما يلي:**

❁ آيات من سورة الشعراء من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.. إلى قوله: ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:١٠-٣٧]

❁ آيات من سورة طه من قوله تعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾.. إلى قوله: ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه:٤٧-٥٥].

❁ آيات من سورة الأعراف من قوله: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ ﴾.. إلى قوله: ﴿سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [الأعراف:١٠٣-١١٢].

❁ سياق آخر للقصة من سورة يونس من آية (٧٥ إلى ٨٣).

❁ سياق آخر من سورة الدخان من آية (١٧ إلى ٢١).

❁ مشهد آخر من مشاهد اللقاء بين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من سورة غافر.

❁ قصة مؤمن آل فرعون.

❁ مشهد من مشاهد اللقاء بين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وفرعون من سورة الإسراء.

❁ القدر المتعلق بما سبق من حديث الفتون.

(١٤١) أحمر أسود

وماذا كان عند لقاء موسى عليه السلام بفرعون

ذلكم اللقاء الأول من نوعه!!

لقد رجع موسى عليه السلام إلى مصر بعد طول غياب!!

رجع موسى عليه السلام إلى مصر، وقد خرج منها خائفًا!!

يترقب لكونه قتل نفسًا لم يؤمر بقلتها!!

رجع موسى إلى مصر، وهو مطلوب أيضًا للقصاص بالنفس التي قتلها!!

ولكن رجع أيضًا إلى مصر رسولًا نبيًّا مُكلفًا بلقاء فرعون ودعوته إلى الله!

مكلفًا كذلك باستنقاذ بني إسرائيل من فرعون وبطش فرعون!

فيا ترى كيف كان حاله عند رجوعه إلى مصر، وقد تبدلت أحواله ودخل وهو رسولٌ نبيٌّ، معه أهله!!

معه أغنامه وأنعامه؟!!

فلا شك أن حاله تغير، والسن به تقدم!

فكيف دخل مصر؟ هل دخل متخفيًا؟!

هل سأل قبل أن يدخل عن البلاد وأهلها وأحوالها وكيف كان الحال عند لقائه بأهله وعشيرته الذين تركهم بمصر؟!

وكيف التقى بهارون عليه السلام، وكيف كان اللقاء.

وهل كانت أمه ما زالت على قيد الحياة، أم أنها قد توفاها الله عز وجل؟!!

وأخته كيف حالها!! وقبيلته بنو إسرائيل كيف أحوالهم هل هي على ما كانت عليه أم أنها تغيرت!!

وهل سكن البحث عنه وهدأ أم لا؟!

الله أعلم بكل ذلك، وكيف كان ذلك، فقد أحاط ربنا بكل شيء علمًا.

وماذا بعد هذا الغياب الطويل لموسى عليه السلام؟!!!

وماذا في هذا اللقاء المثير لموسى عليه السلام مع فرعون؟!!!

لقد رجع موسى عليه السلام إلى مصر بعد طول غياب والتقى بأخيه هارون عليه السلام، وقد منَّ الله عز وجل على هارون بالنبوة والرسالة استجابة لدعوة موسى عليه السلام إذ قال: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ [الشعراء:١٣] ولقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي﴾. [طه:٢٩-٣٠]

وذهب موسى مع أخيه هارون عليهما السلام إلى فرعون.

ذهبا إلى فرعون مُطمئنين بوعدِ الله الحق إذ وعدهما بقوله: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه:٤٦].

ذهبا إلى فرعون فأخبراه أنهما رسولان من عند الله عز وجل.

ذهبا إلى فرعون فدعواه إلى الله عز وجل!

دعواه إلى توحيد الله عز وجل وعدم الشرك به.

إذ الله قـــــال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وقـــال تعـــالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] .

لقـد دعـا موسـى عليه السلام فرعـون بقولـه: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات:١٨-١٩] .

هكذا قال موسى عليه السلام لفرعون، وقد أُمر أن يقول له لين القول، ويتكلم معه بطيب الكلام: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾.

هل لك أن أدلك وأرشدك إلى طريق تتطهر فيه من الشرك والمعاصي، وتزكو به نفسك؟!!

هل لك في أن أهديك إلى ربك فتخشى؟!!

هل لك في أن أرشدك إلى طريق الله عَزَّوَجَلَّ.

وأعرفك بالله عَزَّوَجَلَّ كي تخشاه وترجوه؟!!!

لقد أكَّدا عليه أنهما رسولان من عند الله عَزَّوَجَلَّ وكررا له ذلك.

وأيضًا طلبا منه أن يرسل معهما بني إسرائيل، يترك لهما قبيلتهما بني إسرائيل كي يخرجوا من بلاد فرعون إلى بلاد أُخر يعبدون فيها الله عَزَّوَجَلَّ وحده لا شريك له، ولا يستزلون ولا يمتهنون هذا الامتهان من أجل دينهم!! وكذا إذا كان هناك مسجون فليخرج فحرص موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ على استنقاذ بني إسرائيل من بطش فرعون، ومن بأس فرعون.

أقول أكَّد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه رسول من عند الله، وأنه لن يقول على الله عَزَّوَجَلَّ إلا الحق.

فقال: ﴿يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[الأعراف:١٠٤-١٠٥]

لقد قال موسى وهارون لفرعون: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ﴾ [طه:٤٧].

قالا له: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٦-١٧].

وقد قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لقوم فرعون: ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٨ وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٩ وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ﴾.

[الدخان:١٨-٢٠]

فتلخيصٌ لما طلبه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من فرعون، وما دعاه إليه في الآتي:

١- دعوته إلى توحيد الله عَزَّوَجَلَّ وتزكية النفس بإبعادها عن الشرك، وتذكيره بالله وعظمته حتى يخشاه.

٢- أن يرسل معه بني إسرائيل، يخرج بهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من أرض مصر، وأن يوقف فرعون تعذيبهم هذا مع إخباره أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكذا هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ رسولان من عند الله عَزَّوَجَلَّ أوحى الله عَزَّوَجَلَّ إليهما.

❁ ولكن ما الذي ردَّ بِهِ فرعون على موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وبماذا أجاب؟

❁ إنه فوجئ بمجيء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد طول غياب.

❁ فوجئ بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول له: إنه رسول من عند الله وكان يتصور أن موسى إذا جاء بما جاء يطلب عفوًا عما صدر منه من قتل النفس التي قتلها، وفرَّ هاربًا بسببها!!

❁ ولكن فوجئ بأمر آخر كما سبق.

❁ وفوجئ بثبات عظيم وإيمان ويقين من موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ!!

❁ فوجئ بأنهما يقولان أن الله عَزَّوَجَلَّ أرسلهما لهداية البشر!!

❁ فوجئ بأنهما يقولان بوحدانية الله عَزَّوَجَلَّ، وفرعون يدعي أنه الرب الأعلى، وليس للناس إلهٌ غيره!!

❁ فوجئ بآيات ومعجزات باهرات!!!

❁ فوجئ بأنهما يطلبان بني إسرائيل للخروج بهم من مصر إلى حيث يشاء الله عَزَّوَجَلَّ!

❁ فوجئ بكل هذا!!! فماذا كان؟!!

ماذا كان من فرعون وقومه ووزرائه وجنده؟!!!

ما كان من فرعون وجنده وقومه ووزرائه إلا الكبر والعناد!!!

❁ ما كان منهم إلا الكبر بكل معانيه والاستعلاء بأعظم معانيه.

❁ لقد بطروا الحق ورفضوه وجحدوه واحتقروا من جاء به!!

❁ لقد اتهموا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه يريد أن يظهر في الأرض الفساد!!

۞ لقد كذبوا بالآيات والمعجزات كلها!!

۞ لقد اتهموا موسى وهارون عليهما السلام بالكذب والسحر والجنون!!

۞ لقد هددوهما بالقتل والسجن والتشريد والبطش.

۞ لقد اتهموا موسى وهارون عليهما السلام بأنهما يريدان الرياسة والوجاهة في الدنيا.

۞ وها هو بعض ما ذكره ربنا عز وجل في كتابه الكريم في شأنهم وقومهم مع موسى وهارون عليهما السلام.

على وجه الإجمال، ثم بعده إن شاء الله شيءٌ من التفصيل.

قــال الله عز وجل: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الذاريات:٣٨-٣٩].

وقــال ســبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر:٤١-٤٢].

وقال تعالى ذكره في آيات من سورة الأعراف: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأعراف:١٠٣-١٠٩].

ويقول تعالى ذكره (في سورة النازعات): ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ١٥-٢٤].

وفي سورة يونس يقول تعالى ذِكره: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ

فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا
قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ
ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ
وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يونس:٧٥-٧٩].

وفي سورة الإسراء: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ
جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ
إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء:١٠١-١٠٢]

وما موقف الوزراء وأصحاب رؤوس الأموال من موسى عليه السلام

۞ قـــال الله عز وجل: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [العنكبوت:٣٩].

۞ وفي سورة غافر يقول تعالى ذكره: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ
مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا
جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ
وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ
رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [غافر:٢٣-٢٦].

۞ وفي سورة النمل: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾
وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

[النمل:١٣-١٤]

۞ فحقًّا لقد ظلموا أنفسهم.

۞ إنهم ظلموا أنفسهم لما جاءهم موسى عليه السلام بهذه الآيات!!

۞ ظلموا أنفسهم بسبب تكذيبهم وعنادهم، واستكبارهم وكفرهم!!

فالنفس لها حقٌّ، ومن حقها أن تنزل منازل كريمة يوم القيامة، فإذا تسبب

لها شخص في أن تنزل أسوأ المنازل فقد ظلمها وأهانها!!

ففرعون وقومه ظلموا أنفسهم وأنزلوها أسوأ المنازل بتكذيبهم وظلمهم وكفرهم.

۞ وأي ظلم للنفس أعظم من أن يتسبب لها صاحبها في دخولها الجحيم، وخلودها فيها أبد الآبدين.

۞ أي ظلم للنفس أعظم من تمردها على الله، ذلكم الصنيع الذي يجلب لها نكدًا ما بعده نكدٌ، وهمًّا ما بعده همٌّ، وعذابٌ ما بعده عذاب وخزيًا وذلًّا وعارًا ونارًا وشنارًا.

هذا ولنرجع إلى مزيد من التفصيل في شأن فرعون مع نبي الله موسى عليه السلام.

لقد فُصِّل ذلك بعض التفصيل في سورة الشعراء.

وفي سورة طه، وفي سورة القصص.

فأسوق أولاً مستعينًا بالله ما ورد في هذا الصدد

من سورة الشعراء مع تفسير الآيات المباركات

يقول تعالى ذِكره في آيات من سورة الشعراء: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ
صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ
﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا
مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ
فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى
مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ

حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ
أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ
لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ
﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ
﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾
يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ
وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ [الشعراء: ١٠-٣٧]

إيضاح بعض معاني كلمات القصة من سورة الشعراء:

الكلمة	معناها
﴿ٱئْتِ﴾	اذهب إلى
﴿يَتَّقُونَ﴾	يجعلون وقاية بينهم وبين عذاب الله (بترك الشرك وبترك الكبائر والإجرام)
﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾	فاجعله رسولًا وأرسل إليه وحيًا
﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ﴾	لهم عليَّ قودٌ، ذنبٌ ارتكبته في حقهم بقتل نفس منهم
﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾	بحججنا، وأدلتنا
﴿وَلِيدًا﴾	في صغرك
﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾	الجاحدين
﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾	الجاهلين
﴿حُكْمًا﴾	نبوةً
﴿تَمُنُّهَا عَلَىَّ﴾	تتفضل عليَّ بها وتعيرني بها
﴿عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾	جعلتهم عبيدًا عندك
﴿مُّوقِنِينَ﴾	مُصدقين
﴿بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾	بحجة تظهر صدقي وتدل عليه

الكلمة	معناها
﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾	أخرج يده من جيبه بعد أن أدخلها فيه
﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾	فماذا تشيرون عليَّ
﴿أَرْجِهْ﴾	أخِّره – أمهله
﴿حَٰشِرِينَ﴾	جامعين يجمعون الناس لك لملاقاة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ
﴿عَلِيمٍ﴾	عالم بالسحر

وأما عن المعنى، فأقول – وبالله التوفيق – لقد ذهب موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ إلى فرعون كما أمرهما ربهما: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦]. وتلطفا معه في القول كما أمرهما الله عَزَّ وَجَلَّ إذ قال لهما: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾. [طه:٤٤]

ثم قالا له: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أرسلنا ربنا سبحانه وتعالى إليك وإلى غيرك نبلغ عنه ما يأمرنا بتبليغه ونمتثل أمره ونطيعه.

فكلٌّ منا رسولٌ أرسل إليك من الله عَزَّ وَجَلَّ نطلب منك أن ترسل معنا قبيلتنا الذين هم بنو إسرائيل، فقد كانوا مُستعبدين مُستذلين عند فرعون فأراد موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ الخروج بقومهما من مصر وأرادا من فرعون أن يطلقهم ويُخلِّ سبيلهم حتى يخرج بهم إلى أرض أُخرى قيل هي فلسطين فعندئذٍ أجاب فرعون بازدراء واحتقار واستصغار وامتهان ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ ألم تتربى في بيتنا في صغرك وتأكل من طعامنا وتشرب شرابنا ومكثت معنا سنوات من عمرك على طريقتنا، وبعد ذلك قتلت منَّا نفسًا وكفرت بنعمنا عليك وإحساننا إليك.

فهذا قوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩].

فعندها قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: قتلت النفس التي قتلتها قبل أن يُوحى إليَّ قبل أن أكون رسولًا، وقيل: وأنا من المخطئين بفعلتي هذه الجاهلين. وقيل: لم يكن يعلم أن الوكزة تقضي إلى القتل.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ وخرجت هاربًا من بلادكم لما خشيت أن تقتلوني فلما خرجت ومكثت زمانًا بعيدًا عنكم ووهب لي ربي حُكمًا، قيل: نبوةً، وقيل: التوراة التي آتاه الله إياها.

مزيدٌ من الإيضاح وأقوال العلماء

في معنى قول فرعون لعنه الله لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٩﴾ [الشعراء:١٩].

أقول، وبالله بالتوفيق:

أما الفعلة فهي قتل القبطي؛ إذ الله قال: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص:١٥]

أما قوله: ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٩﴾ ففيه وجهان:

أحدهما: أنك كفرت بنعمنا عليك وإحساننا إليك وتربيتنا لك، كفرت بكل هذا، وقتلت واحدًا منا فالكفر هاهنا كفر النعم.

الثاني: أن المراد وأنت من الكافرين بالله فقد كنت معنا على ديننا قبل أن ترجع إلينا بقولك الذي جئتنا به الآية.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: وأنت من الكافرين بالله على ديننا.

وأورد بإسنادٍ حسن عن السُّدي: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني: على ديننا هذا الذي تعيب.

قال الطبري: وقال آخرون: بل معنى ذلك: وأنت من الكافرين نعمتنا عليك.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال: ربيناك فينا وليدًا، فهذا الذي كافأتنا أن قتلت منا نفسا، وكفرت نعمتنا!

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا القول الذي قاله ابن زيد أشبه بتأويل الآية؛ لأن فرعون لم يكن مقرًّا لله بالربوبية وإنما كان يزعم أنه هو الربُّ، فغير جائز أن يقول لموسى، إن كان موسى كان عنده على دينه يوم قتل القتيل على ما قاله السدي: فعلت الفعلة وأنت من الكافرين، والإيمان عنده: هو دينه الذي كان عليه موسى عنده، إلا أن يقول قائل: إنما أراد: وأنت من الكافرين يومئذٍ يا موسى، على قولك اليوم، فيكون ذلك وجهًا يتوجه. فتأويل الكلام إذن: وقتلت الذي قتلت منَّا وأنت من الكافرين نعمتنا عليك، وإحساننا إليك في قتلك إياه.

وقد قيل: معنى ذلك: وأنت الآن من الكافرين لنعمتي عليك، وتربيتي إياك.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى في كلام فرعون لموسى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أبهم جلَّ وعلا هذه الفعلة التي فعلها لتعبيره عنها بالاسم المبهم الذي هو الموصول في قوله: ﴿ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾، وقد أوضحها في آيات أُخر، وبيَّن أن الفعلة المذكورة هي قتله نفسًا منهم؛ كقوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ [القصص: ٣٣]، وقوله عن الإسرائيلي الذي استغاث بموسى مرّتين: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾[القصص:١٩]

وأظهر الأقوال عندي في معنى قوله: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أن المراد به كفر النعمة، يعني: أنعمنا عليك بتربيتنا إياك صغيرًا، وإحساننا إليك تتقلب في نعمتنا فكفرت نعمتنا، وقابلت إحساننا بالإساءة لقتلك نفسًا منّا، وباقي الأقوال تركناه؛ لأن هذا أظهرها عندنا.

وقال بعض أهل العلم: ردّ موسى على فرعون امتنانه عليه بالتربية، بقوله:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]، يعني: تعبيدك لقومي، وإهانتك لهم لا يعتبر معه إحسانك إليّ؛ لأني رجل واحد منهم، والعلم عند الله تعالى.

وقول موسى عليه السلام: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

قال الشنقيطي رحمه الله (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

أي: قال موسى مجيبًا لفرعون: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾، أي: إذ فعلتها ﴿وَأَنَا۠﴾ في ذلك الحين ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، أي: قبل أن يوحي الله إليّ، ويبعثني رسولًا، وهذا هو التحقيق - إن شاء الله - في معنى الآية.

وقول من قال من أهل العلم: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، أي: من الجاهلين، راجع إلى ما ذكرنا؛ لأنه بالنسبة إلى ما علمه الله من الوحي يعتبر قبله جاهلًا، أي: غير عالم بما أوحى الله إليه.

وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: منَّ الله علي بالرسالة فاختارني رسولًا.

ثم قال موسى عليه السلام: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أي نعمةٍ هذه التي تمنُّ عليَّ بها؟ مقابل إساءتك المتواصلة البالغة إلى قومي بني إسرائيل، أي: إن كنت أحسنت إليَّ بإطعامي وشرابي فقد قتلت قومي واستعبدتهم واستذللتهم وسُمْتهم سوء العذاب.

فإحسانك إليَّ بإطعامي وإعاشتي في بيتك لا تساوي شيئًا مما صنعته بأهلي وأقربائي.

هذا، وقد قال بعض العلماء إن قول موسى عليه السلام ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٢٢] إنما قيل على سبيل الإقرار من موسى عليه السلام.

أي نعم قد أنعمت عليَّ بتربيتي في بيتك ورعيتني في الوقت الذي كنت تذبح فيه بني إسرائيل، فذبحت بعضهم واستعبدتهم وتركتني فهذه نعمة منك عليَّ،

لكن هذا كله لا يدفع رسالتي فأنا رسول من رب العالمين.

فعلى هذا، ففي قوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٢٢] قولان لأهل العلم:

أحدهما: أن هذا استنكار.

والمعنى: أو هذه نعمة تمتنُّ بها عليَّ وقد استعبدت أهلي وذبحتهم.

الثاني: أن هذا من الإقرار بالنعم، وكأنه قال له قد ذكرت أنك ربيتني في بيتك وأحسنت إلي وقد لبثت فيكم سنين ولك أيضًا أن تمتن عليَّ بنعمة أُخرى وهي أنك جعلت بني إسرائيل عبيدًا لك ولم تجعلني عبدًا لك، أي عبدت بني إسرائيل وتركتني، والله أعلم.

۞ فعند ذلك، ولما أجاب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأحسن جواب على السؤال الذي وجه إليه، وأقَرَّ بجانب الحق الذي فيه، وردَّ الباطل ودحض بأحسن أسلوبٍ وأجمل تعبير، عندئذٍ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء:٢٣].

أي شيءٍ رب العالمين هذا الذي تدعوني إليه فأجابه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء:٢٤]. أي مصدقين.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ يقول: وأي شيء رب العالمين؟ ﴿قَالَ﴾ موسى هو ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومالكهن ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ يقول: ومالك ما بين السموات والأرض من شيء. ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ يقول: إن كنتم موقنين أن ما تعاينونه كما تعاينونه، فكذلك فأيقنوا أن ربَّنا هو رب السموات والأرض وما بينهما.

قلت (مصطفى): هذا والعالمين تطلق على أشياء، ويفهم معناها المراد من السياق الذي وردت فيه.

فما تطلق عليه الإنس والجن، ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ

عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:١].

وتطلق على البشر قال لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:١٦٥]

وتطلق على السموات والأرض وما بينها للآية المذكورة ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ..﴾ [الشعراء:٢٤]

وبعد، فما الذي أجاب به فرعون موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؟!!

إنه يُهيج القوم على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ويُثيرهم عليه وذلك أنهم كانوا يعبدون فرعون، ويقرونه على قول الباطل ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [النازعات:٢٤]. ..... لقد قال فرعون لقومه يستثيرهم على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ﴾[الشعراء:٢٥]

والمعنى والله أعلم:

أن فرعون قال لقومه لما سأل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عن رب العالمين فأجابه موسى بقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ قال حينئذٍ لقومه: ﴿أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ﴾ إلى ما يقوله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من أن له ربًّا غيري وهو ربُّ السموات والأرض.

فبماذا أجاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؟!!

لقد توجَّه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالخطاب للقوم قائلًا لهم: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ أي: أن الله عَزَّوَجَلَّ هو ربي وربكم ورب آبائكم الذين ماتوا وذهبوا، فعندها قال فرعون ساخرًا: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ﴾ أي: مغلوب على عقله لا يدري ما يقول، فعندها قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ متوجهًا للقوم: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ أي: إن كانت لكم عقول تفهمون بها.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ﴾ قال فرعون لمن حوله من قومه: ألا تستمعون لما يقول موسى، فأخبر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ القوم بالجواب عن

مسألة فرعون إياه وقيله له ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ليفهم بذلك قوم فرعون مقالته لفرعون، وجوابه إياه عما سأله؛ إذ قال لهم فرعون: ﴿أَلَا تَسۡتَمِعُونَ﴾ إلى قول موسى، فقال لهم الذي دعوته إليه وإلى عبادته ﴿رَبُّكُمۡ﴾ الذي خلقكم ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ فقال فرعون لما قال لهم موسى ذلك، وأخبرهم عما يدعو إليه فرعون وقومه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾ يقول: إن رسولكم هذا الذي يزعم أنه أرسل إليكم لمغلوب على عقله؛ لأنه يقول قولًا لا نعرفه ولا نفهمه، وإنما قال ذلك ونسب موسى عدو الله إلى الجنة؛ لأنه كان عنده وعند قومه أنه لا ربَّ غيره يعبد، وأن الذي يدعوه إليه موسى باطل ليست له حقيقة، فقال موسى عند ذلك محتجًّا عليهم، ومعرفهم ربهم بصفته وأدلته؛ إذ كان عند قوم فرعون أن الذي يعرفونه ربًّا لهم في ذلك الوقت هو فرعون، وأن الذي يعرفونه لآبائهم أربابًا ملوك أخر، كانوا قبل فرعون، قد مضوا فلم يكن عندهم أن موسى أخبرهم بشيء له معنى يفهمونه ولا يعقلونه، ولذلك قال لهم فرعون: إنه مجنون؛ لأن كلامه كان عندهم كلامًا لا يعقلون معناه، وقوله: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾ فمعناه: الذي أدعوكم وفرعون إلى عبادته رب المشرق والمغرب وما بينهما يعني ملك مشرق الشمس ومغربها، وما بينهما من شيء لا إلى عبادة ملوك مصر الذين كانوا ملوكها قبل فرعون لآبائكم فمضوا، ولا إلى عبادة فرعون الذي هو ملكها. ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ يقول: إن كان لكم عقول تعقلون بها ما يقال لكم، وتفهمون بها ما تسمعون مما يعين لكم؛ فلما أخبرهم عليه السلام بالأمر الذي علموا أنه الحق الواضح؛ إذ كان فرعون ومن قبله من ملوك مصر لم يجاوز ملكهم عريش مصر.

وقال القرطبي رحمه الله:

فعلم موسى جهله (أي جهل فرعون) فأضرب عن سؤله وأعلمه بعظيم قدرة الله التي تبين للسامع أنه لا مشاركة لفرعون فيها فقال فرعون: ﴿أَلَا

﴿تَسۡتَمِعُونَ﴾ على معنى الإغراء والتعجب من سفه المقالة إذا كانت عقيدة القوم أن فرعون ربهم ومعبودهم والفراعنة قبله كذلك فزاد موسى في البيان بقوله: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ فجاء بدليل يفهمونه عنه لأنهم يعلمون أنه قد كان لهم آباء وأنهم قد فنوا وأنه لابد لهم من مُغيِّر وأنهم قد كانوا بعد أن لم يكونوا وأنهم لا بد لهم من مكون فقال فرعون حينئذٍ على جهة الاستخفاف: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾ أي: ليس يجيبني عما أسأل فأجابه موسى عليه السلام عن هذا بأن قال: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ أن ليس ملكه كملكك؛ لأنك إنما تملك بلدًا واحدًا لا يجوز أمرك في غيره ويموت من لا تحب أن يموت والذي أرسلني يملك المشرق والمغرب ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ وقيل: علم موسى عليه السلام أن قصده في السؤال معرفة من سأل عنه فأجاب بما هو الطريق إلى معرفة الرب اليوم.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون، وتمرده وطغيانه وجحوده، في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؟ وذلك أنه كان يقول لقومه: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]، ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وكانوا يجحدون الصانع -تعالى- ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون، فلما قال له موسى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦]، قال له: ومَنْ هذا الذي تزعم أنه ربُّ العالمين غيري؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف، حتى قال السدي: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم؛ أن هذا سؤال عن الماهية، فقد غلط؛ فإنه لم يكن مقرًّا بالصانع حتى يسأل عن الماهية، بل كان جاحدًا له بالكلية فيما يظهر، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾ أي: خالق

جميع ذلك ومالكه، والمتصرف فيه وإلهه، لا شريك له، هو الله الذي خلق الأشياء كلها، العالم العلوي وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار، وجبال وأشجار، وحيوان ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطيور، وما يحتوي عليه الجو، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة. فعند ذلك التفت فرعون إلى مَنْ حوله من مَلَئه ورؤساء دولته قائلًا لهم، على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ أي: ألا تعجبون مما يقول هذا في زعمه، أن لكم إلهًا غيري؟ فقال لهم موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: خالقكم وخالق آبائكم الأوائل، الذي كانوا قبل فرعون وزمانه.

﴿قَالَ﴾ أي: فرعون لقومه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: ليس له عقل في دعواه أن ثمّ ربًّا غيري.

﴿قَالَ﴾ أي: موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة، فأجاب موسى بقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: هو الذي جعل المشرق مشرقًا تطلع منه الكواكب، والمغرب مغربًا تغرب فيه الكواكب، ثوابتها وسياراتها، مع هذا النظام الذي سَخّرها فيه وقدّرها، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربُّكم وإلهكم صادقًا فليعكس الأمر، وليجعل المشرق مغربًا، والمغرب مشرقًا، كما أخبر تعالى عن ﴿ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨]؛ ولهذا لما غُلب فرعون وانقطعت حجته، عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ في موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال ما أخبر الله تعالى عنه.

فرعون يُهدد ويلوِّح بالبطش

قلت (مصطفى): فماذا كان من فرعون لما غلبه موسى عليه السلام بالحجة والبيان والبرهان؟؟

إنه بدأ في استعمال لغة التهديد والتلويح بالبطش والسجن!!

فهذا قوله لموسى عليه السلام، وجواب موسى عليه السلام لقد قال فرعون لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٩-٣٧].

والمعنى - والله أعلم -: أن فرعون عليه لعنة الله لما غُلب ولما انقطع عن الحجج وظهر بطلان رأيه توعد موسى عليه السلام بالسجن، فقال له: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي﴾ لئن اتخذت معبودًا سواي تعبده لأدخلنك السجن مع المسجونين، فقال له موسى عليه السلام: أولو جئتك بحجة ودلالة على صدقي فيما قلته لك، حجة تبين لمن تأملها أني رسول من عند الله، قال فرعون آنذاك: ﴿فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك أنك رسول من عند الله.

فعندئذٍ ألقى موسى عليه السلام عصاه فإذا بها تتحول إلى ثعبان مبين، ثعبان عظيم يُبين لمن نظر إليه أنه آية من عند الله عز وجل ليس سحرًا ولا شعوذة ولا كهانة، وأضاف موسى إلى ذلك أيضًا أنه أدخل يده في جيبه، يعني في فتحة الصدر، ثم أخرجها فإذا بها تخرج بيضاء ناصعة البياض من غير مرضٍ ولا برص، بيضاء لمن يراها وينظر إليها، فعندها قال فرعون لقومه لوجهاء قومه: إن هذا يعني موسى عليه السلام لساحر عليم بالسحر يريد أن يطردكم من بلادكم بهذا السحر الذي أتى به فما الذي تشيرون به عليَّ في شأن موسى هذا؟ فقالوا: أمهله

وأمهل أخاه زمنًا حتى نأتي بسحرة مصر يواجهونه ويبطلون سحره.

فأمهله وأرسل في المدائن مَنْ يجمع لك أمهر السحرة وأعلمهم بالسحر.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال موسى لفرعون لما عرفه ربه، وأنه ربُّ المشرق والمغرب، ودعاه إلى عبادته وإخلاص الألوهة له، وأجابه فرعون بقوله: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾: أتجعلني من المسجونين ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ يبين لك صدق ما أقول يا فرعون وحقيقة ما أدعوك إليه؟ وإنما قال ذلك له؛ لأن من أخلاق الناس السكون للإنصاف، والإجابة إلى الحق بعد البيان؛ فلما قال موسى له ما قال من ذلك، قال له فرعون: فائت بالشيء المبين حقيقة ما تقول، فإنا لن نسجنك حينئذٍ إن اتخذت إلهًا غيري إن كنت من الصادقين: يقول: إن كنت محقًّا فيما تقول، وصادقًا فيما تصف وتخبر، ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾ يقول جل ثناؤه: فألقى موسى عصاه فتحولت ثعبانًا، وهي الحية الذكر كما قد بينت فيما مضى قبل من صفته وقوله: ﴿مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾ يقول: يبين لفرعون والملإ من قومه أنه ثعبان.

وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ﴾ يقول: وأخرج موسى يده من جيبه فإذا هي بيضاء تلمع ﴿لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ لمن ينظر إليها ويراها.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال فرعون لما أراه موسى من عظيم قدرة الله وسلطانه حجة عليه لموسى بحقيقة ما دعاه إليه، وصدق ما أتاه به من عند ربه ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ يعني لأشراف قومه الذين كانوا حوله. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ يقول: إن موسى سحر عصاه حتى أراكموها ثعبانًا ﴿عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾، يقول: ذو علم بالسحر وبصر به. ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ يقول: يريد أن

يخرج بني إسرائيل من أرضكم إلى الشأم بقهره إياكم بالسحر. وإنما قال: يريد أن يخرجكم فجعل الخطاب للملإ حوله من القبط، والمعني به بني إسرائيل؛ لأن القبط كانوا قد استعبدوا بني إسرائيل، واتخذوهم خدمًا لأنفسهم ومهانًا، فلذلك قال لهم: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم﴾ وهو يريد: أن يخرج خدمكم وعبيدكم من أرض مصر إلى الشأم.

وإنما قلت معنى ذلك كذلك؛ لأن الله إنما أرسل موسى إلى فرعون يأمره بإرسال بني إسرائيل معه، فقال له ولأخيه: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾.

وقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ يقول: فأي شيء تأمرون في أمر موسى وما به تشيرون من الرأي فيه؟ ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: فأجاب فرعون الملأ حوله بأن قالوا له: أخِّر موسى وأخاه وأنظره، وابعث في بلادك وأمصار مصر حاشرين يحشرون إليك كل سحار عليم بالسحر.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما قامت على فرعون الحجة بالبيان والعقل، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه، وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال فقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾. فعند ذلك قال موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾؟ أي: برهان قاطع واضح.

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح والعظمة، ذات قوائم وفم كبير، وشكل هائل مزعج.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أي: من جيبه ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أي: تتلألأ كقطعة من القمر. فبادر فرعون - لشقائه - إلى التكذيب والعناد، فقال للملإ حوله: ﴿إِنَّ

﴿هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: فاضل بارع في السحر. فَرَوَّج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة، ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته، والكفر به. فقال: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟ أي: أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم، فيأخذ البلاد منكم، فأشيروا عليَّ فيه ماذا أصنع به؟

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ أي: أخِّره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحَّار عليم يقابلونه، ويأتون بنظير ما جاء به، فتغلبه أنت وتكون لك النصرة والتأييد؛ فأجابهم إلى ذلك، وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك؛ ليجتمع الناس في صعيد واحد، ولتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما انقطع فرعون - لعنه الله - في باب الحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب فتوعد موسى بالسجن ولم يقل ما دليلك على أن هذا الإله أرسلك لأن فيه الاعتراف بأن ثمَّ إلهًا غيره وفي توعده بالسجن ضعف وكان فيما يروى أنه يفزع منه فزعًا شديدًا حتى كان اللعين لا يمسك بوله. وروي أن سجنه كان أشد من القتل وكان إذا سجن أحدًا لم يخرجه من سجنه حتى يموت فكان مخوفًا ثم لما كان عند موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أمر الله تعالى ما لا يرعه توعد فرعون ﴿قَالَ﴾ له على جهة اللُّطف به والطمع في إيمانه ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ فيتضح لك به صدقي فلما سمع فرعون ذلك طمع في أن يجد أثناءه موضع معارضة فـ﴿قَالَ﴾ له ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ولم يحتج الشرط إلى جواب عند سيبويه؛ لأن ما تقدم يكفي منه.

مشهد آخر من مشاهد اللقاء بين موسى عليه السلام وبين فرعون

وفيه تعريفٌ بالله عز وجل وآياته وقدرته، وكذا تذكيرٌ بالبعث والحساب

يقول تعالى ذكره (في آيات من سورة طه):

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ
جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ
ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا
ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ
عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا
مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾
۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [طه:٤٧-٥٥].

وعن معاني هذه الكلمات فها هي:

الكلمة	معناها
﴿ فَأْتِيَاهُ ﴾	فاذهبا إليه.
﴿ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾	البيان الذي جئنا به من عند الله، ومنه التوراة- والهداية وغير ذلك.
﴿ كَذَّبَ ﴾	كذب الأنبياء والرسل والكتب التي جاءوا بها من عند الله.
﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾	أعرض عن الطاعة.
﴿ مَهْدًا ﴾	ممهدة - مهيئة للمسير عليها والسعي عليها.
﴿ وَسَلَكَ ﴾	شقَّ- جعل.
﴿ سُبُلًا ﴾	طرقًا.
﴿ أَزْوَٰجًا ﴾	أصنافًا.

الكلمة	معناها
﴿شَتَّىٰ﴾	متعددة.
﴿لِأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾	لأصحاب العقول النيرة الرشيدة.
﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾	مرة أخرى.

۞ أما عن المعنى الإجمالي لها :

فأقول -وبالله التوفيق - هذا قول الله سبحانه وتعالى لنبيه موسى ﷺ أمره عَزَّوَجَلَّ أن يذهب مع أخيه هارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ إلى فرعون فيقولا له إنا رسولان من عند الله عَزَّوَجَلَّ الذي هو ربك فأرسل معنا قبيلتنا من بني إسرائيل حتى نخرج بهم من ديارك، ولا تسومهم سوء العذاب بتسخيرك لهم وإذلالك وامتهانهم وقد جئناك بما يدل على صدقنا وأننا رسولين من عند الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾ والأمان والسلامة على من سلك طريق الهداية واتبع البيان الذي جئناه به من عند الله عَزَّوَجَلَّ وقد أوحى الله عَزَّوَجَلَّ إلينا أيضًا فيما أوحاه أن العذاب على من كذب الأنبياء، وكذب بالكتب المنزلة من عند الله وتولى عن الطاعة والامتثال لها.

وبعد فهل اقتنع فرعون بما قاله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؟!

كلا بل أخذ يجادل قائلاً: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٤٩]؟

من ربكما الذي تعبدانه وتدينان بدينه يا موسى، قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].

وللعلماء في تأويل ذلك أقوال:

أحدها: أنه سبحانه أعطى كل مخلوق صورته التي خلقه عليها وجعل من كل مخلوق أُنثى من جنسه، فالبشر منهم ذكور وإناث، وكل مخلوق منه ذكور وإناث كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ فالجمل معه ناقة، والبقرة معها ثور، والكبش من جنسه عنزٌ، والجدي من جنسه عنزٌ، وكذا الكلاب والقطط وسائر المخلوقات ثم إنه سبحانه هدى الذكور إلى مآتي النساء ودلهم

على الجماع وما يكون به التكاثر والتناسل.

وثمَّ قول آخر أنه جل وعلا خلق الخلائق وكتب عليهم الآجال وقدر لهم المقادير ثم هدى الخلائق إلى فعل ما كتبه عليهم، وساقهم إلى المكتوب عليهم كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ وقد قدمت شيئًا من ذلك في تفسير سورة الليل وهناك قولًا ثالث أنه عَزَّوَجَلَّ أعطى كل شيء خلقه في صورته التي خلق عليها ثم يسر له من أسباب المعيشة ما يتناسب معه وهنالك أقوالًا أخر في هذا الصدد.

فعند ذلك ولما أجاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا الجواب قال فرعون يريد أن يُثير الناس على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فإن موسى إذا ذكر آباءهم بسوءٍ ثاروا عليه فسأله فرعون سؤالًا قائلًا: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾؟ فما شأن من مضى قبلنا من الأمم؟ فأجابه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿عِلْمُهَا﴾ - إلى أين صارت وما الذي عملت في دنياها- وكل ما يتعلق بها مثبت عند ربي عَزَّوَجَلَّ ﴿فِي كِتَابٍ﴾، فكلٌّ قد كتبت أقواله وأعماله ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي﴾ أي: إن ربي عَزَّوَجَلَّ لا يخطئ ﴿وَلَا يَنسَى﴾، ومع أنه سبحانه وتعالى لا يضل ولا ينسى إلا أن أعمالهم أيضًا مكتوبة في كتاب يحاجون به يوم القيامة، وكذا في الآية الكريمة إشارة إلى كتابة ما يحتاج إلى كتابة من عقود وعهود ومداينات ونحو ذلك ففي الآية تعليم للعباد وإرشادٌ لهم كذلك.

ثم هذا - والله أعلم - مزيدُ بيانٍ من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لفرعون لما سأله قائلاً: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ [طه:٤٩] فأجابه قائلاً: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[طه:٥٣-٥٥]

والمعنى، والله أعلم أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أجاب فرعون، وكان مما أجابه به في تعريفه بالله ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: ممهدة مُسَهلة تمشون عليها

بسهولة ويسر ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ شق لكم فيها طرقًا تسلكونها إلى حيث تريدون وأنزل من ﴿ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وهو المطر ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾ أصنافًا ﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ متعدد الأشكال والألوان والطعوم والروائح وغير ذلك كل هذا من فضل الله عَزَّوَجَلَّ فقد تفضل الله عَزَّوَجَلَّ بذلك على خلقه مبيحًا لهم ذلك ميسرًا لهم ذلك ﴿كُلُواْ﴾ يا عبادي مما رزقكم ﴿وَٱرْعَوْاْ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ مواشيكم من إبل وبقر وغنم وماعز وغير ذلك كما قال تعالى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ إنه في ذلك الذي يحدث الله لكم من النعم ويسره لكم من السبل، وينبته لكم من النبات وينزله لكم من السماء لدلالات واضحات وعلامات جليات يستدل بها أصحاب العقول النيرة الرشيدة على وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ وعلى قدرته ثم يذكر تعالى العباد بقوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي: من الأرض خلقناكم فقد خلقتم من تراب ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ بعد موتكم ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ تارة أخرى وذلك يوم القيامة.

وبنحو ما ذكر في تفسير الآيات قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أرسلنا إليك يأمرك أن ترسل معنا بني إسرائيل، فأرسلهم معنا ولا تعذّبهم بما تكلفهم من الأعمال الرديئة ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ﴾ معجزة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ على أنه أرسلنا إليك بذلك، إن أنت لم تصدّقنا فيما نقول لك أريناكها، ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ يقول: والسلامة لمن اتبع هدى الله، وهو بيانه، يقال: السلام على من اتبع الهدى، ولمن اتبع بمعنى واحد.

يقول تعالى ذكره لرسوله موسى وهارون: ﴿فَقُولَآ﴾ لفرعون ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ﴾ ربك أن عذابه الذي لا نفاد له ولا انقطاع ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ بما ندعوه إليه من توحيد الله وطاعته، وإجابة رسله ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ يقول: وأدبر مُعرضًا عما جئناه به من الحقّ.

وقال الطبري:

وقوله: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ في هذا الكلام متروك، ترك ذكره استغناء بدلالة ما ذكر عليه عنه، وهو قوله: ﴿ فَأْتِيَاهُ ﴾ فقالا له ما أمرهما به ربهما وأبلغاه رسالته، فقال فرعون لهما: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ فخاطب موسى وحده بقوله: يا موسى، وقد وجه الكلام قبل ذلك إلى موسى وأخيه. وإنما فعل ذلك كذلك، لأن المجاوبة إنما تكون من الواحد وإن كان الخطاب بالجماعة لا من الجميع، وذلك نظير قوله: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [الكهف: ٦١] وكان الذي يحمل الحوت واحد، وهو فتى موسى، يدل على ذلك قوله: ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ [الكهف: ٦٣].

وقوله: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ يقول تعالى ذكره: قال موسى له مجيبًا: ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه، يعني: نظير خلقه في الصورة والهيئة كالذكور من بني آدم. أعطاهم نظير خلقهم من الإناث أزواجًا، وكالذكور من البهائم، أعطاها نظير خلقها، وفي صورتها وهيئتها من الإناث أزواجًا، فلم يعط الإنسان خلاف خلقه، فيزوجه بالإناث من البهائم، ولا البهائم بالإناث من الإنس، ثم هداهم للمأتي الذي منه النسل والنماء كيف يأتيه، ولسائر منافعه من المطاعم والمشارب، وغير ذلك.

وقد اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: بنحو الذي قلنا فيه.

وقال آخرون: معنى قوله: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ أنه هداهم إلى الألفة والاجتماع والمناكحة.

وقال آخرون: معنى ذلك: أعطى كلّ شيء صورته، وهي خلقه الذي خلقه به، ثم هداه لما يصلحه من الاحتيال للغذاء والمعاش.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أعطى كل شيء ما يصلحه ثم هداه له.

قال أبو جعفر: وإنما اخترنا القول الذي اخترنا في تأويل ذلك، لأنه جلّ ثناؤه

أخبر أنه أعطى كلّ شيء خلقه، ولا يعطي المعطي نفسه، بل إنما يعطي ما هو غيره، لأن العطية تقتضي المعطي والمُعطَى والعطية، ولا تكون العطية هي المعْطَى، وإذا لم تكن هي هو، وكانت غيره، وكانت صورة كلّ خلق بعض أجزائه، كان معلومًا أنه إذا قيل: أعطى الإنسان صورته، إنما يعني أنه أعطى بعض المعاني التي به مع غيره دعي إنسانًا، فكأن قائله قال: أعطى كلّ خلق نفسه، وليس ذلك إذا وجه إليه الكلام بالمعروف من معاني العطية، وإن كان قد يحتمله الكلام. فإذا كان ذلك كذلك، فالأصوب من معانيه أن يكون موجهًا إلى أن كلّ شيء أعطاه ربه مثل خلقه، فزوجه به، ثم هداه لما بيَّنا، ثم ترك ذكر مثل، وقيل: ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ كما يقال: عبد الله مثل الأسد، ثم يحذف مثل، فيقول: عبد الله الأسد.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ٥١ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ٥٢﴾.

يقول تعالى ذكره: قال فرعون لموسى - إذ وصف موسى ربه جل جلاله بما وصفه به من عظيم السلطان، وكثرة الإنعام على خلقه والأفضال-: فما شأن الأمم الخالية من قبلنا لم تقرّ بما تقول، ولم تصدّق بما تدعو إليه، ولم تخلص له العبادة، ولكنها عبدت الآلهة والأوثان من دونه، إن كان الأمر على ما تصف من أن الأشياء كلها خلقه، وأنها في نِعمه تتقلَّب، وفي مِنَنه تتصرف؟ فأجابه موسى فقال: علم هذه الأمم التي مضت من قبلنا فيما فعلت من ذلك، عند ربي في كتاب، يعني في أمّ الكتاب، لا علم لي بأمرها، وما كان سبب ضلال من ضل منهم فذهب عن دين الله ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾ يقول: لا يخطئ ربي في تدبيره وأفعاله، فإن كان عذّب تلك القرون في عاجل، وعجل هلاكها، فالصواب ما فعل، وإن كان أخر عقابها إلى القيامة، فالحقّ ما فعل، هو أعلم بما يفعل، لا يخطئ ربي ﴿وَلَا يَنسَى﴾ فيترك فعل ما فعْله حكمةً وصوابًا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ يقول: وأنهج لكم في الأرض طرقًا. والهاء في قوله: ﴿فِيهَا﴾ من ذكر الأرض.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾: أي طرقًا.

وقوله: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ يقول: وأنزل من السماء مطرًا ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن إنعامه على خلقه بما يحدث لهم من الغيث الذي ينزله من سمائه إلى أرضه، بعد تناهي خبره عن جواب موسى فرعون عما سأله عنه وثنائه على ربه بما هو أهله، يقول جلّ ثناؤه: فأخرجنا نحن أيها الناس بما ننزل من السماء من ماء أزواجًا، يعني: ألوانًا من نبات شتى، يعني: مختلفة الطعوم، والأراييح والمنظر.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾.

يقول تعالى ذكره: كلوا أيها الناس من طيب ما أخرجنا لكم بالغيث الذي أنزلناه من السماء إلى الأرض من ثمار ذلك وطعامه، وما هو من أقواتكم وغذائكم، وارعوا فيما هو أرزاق بهائمكم منه وأقواتها أنعامكم ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ﴾ يقول: إن فيما وصفت في هذه الآية من قدرة ربكم، وعظيم سلطانه لآيات: يعني: لدلالات وعلامات تدلّ على وحدانية ربكم، وأن لا إله لكم غيره ﴿ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ يعني: أهل الحجى والعقول، والنهى: جمع نُهية، كما الكُشَى: جمع كُشْيَة.

قال أبو جعفر: والكشَى: شحمة تكون في جوف الضبِّ، شبيهة بالسرّة، وخصّ تعالى ذكره بأن ذلك آيات لأولي النُّهَى، لأنهم أهل التفكُّر والاعتبار، وأهل التدبر والاتعاظ.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾.

يقول تعالى ذكره: من الأرض خلقناكم أيها الناس، فأنشأناكم أجسامًا ناطقة ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ يقول: وفي الأرض نعيدكم بعد مماتكم، فنصيركم ترابًا، كما

كنتم قبل إنشائنا لكم بشرًا سويًّا ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ يقول: ومن الأرض نخرجكم كما كنتم قبل مماتكم أحياء، فننشئكم منها، كما أنشأناكم أول مرة..

وقوله: ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ يقول: مرّة أخرى.

قال أبو جعفر: فتأويل الكلام إذن: من الأرض أخرجناكم ولم تكونوا شيئًا خلقًا سويًّا، وسنخرجكم منها بعد مماتكم مرّة أخرى، كما أخرجناكم منها أوّل مرة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: بدلالة ومعجزة من ربك، ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ أي: والسلام عليك إن اتبعت الهدى.

ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتابًا، كان أوله: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين**»(١).

وكذلك لما كتب مسيلمة إلى رسول الله ﷺ كتابًا صُورَتُه: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك. أما بعد: فإني قد أشركت في الأمر مَعَكَ، فلك المدر ولي الوبر، ولكن قريش قوم يعتدون». فكتب إليه رسول الله ﷺ: «**من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين**».

ولهذا قال موسى وهارون، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، لفرعون: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٣٧ -

---

(١) البخاري (٢٨٦١)، ومسلم (١٧٧).

٣٩]، وقـال تعـالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: ١٤ -١٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]. أي: كذب بقلبه وتولى بفعله.

وقال ابن كثير أيضًا:

وقال بعض المفسرين: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣] أي: قدر قدرًا، وهدى الخلائق إليه، أي: كَتَب الأعمال والآجال والأرزاق، ثم الخلائق ماشون على ذلك، لا يحيدون عنه، ولا يقدر أحد على الخروج منه. يقول: ربنا الذي خلق الخلق وقدر القَدَر، وجَبَل الخليقة على ما أراد.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أصح الأقوال في معنى ذلك: أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى، أي: الذين لم يعبدوا الله، أي: فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول، لم يعبدوه بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى في جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم، وسيجزيهم بعملهم في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال، ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ أي: لا يشذ عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئًا. يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئًا، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه، فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان أحدهما: عدم الإحاطة بالشيء، والآخر نسيانه بعد علمه، فنزه نفسه عن ذلك.

وقد ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ نحوًا مما تقدم نقله عن الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه، عَزَّ وَجَلَّ، حين سأله فرعون عنه، فقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾، ثم اعترض الكلام بين ذلك،

ثم قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾.

وفي قراءة بعضهم (مهدًا) أي: قرارًا تستقرون عليها وتقومون وتنامون عليها وتسافرون على ظهرها، ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: جعل لكم طرقًا تمشون في مناكبها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[الأنبياء:٣١]

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ أي: ألوان النباتات من زروع وثمار، من حامض وحلو ومر، وسائر الأنواع.

﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ أي: شيء لطعامكم وفاكهتكم، وشيء لأنعامكم لأقواتها خضرًا ويابسًا.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي: لدلالات وحججًا وبراهين ﴿لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ أي: لذوي العقول السليمة المستقيمة، على أنه لا إله إلا الله، ولا رب سواه.

﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: من الأرض مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض، ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي: وإليها تصيرون إذا متم وبليتم، ومنها نخرجكم تارة أخرى. ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ٥٢].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

[الأعراف: ٢٥]

سياق آخر لهذا المشهد العظيم

(مشهد لقاء موسى عليه السلام مع فرعون) من سورة الأعراف

أولاً: ذِكر الآيات المباركات:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ

فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ
بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾
يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى
ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ [الأعراف:١٠٣-١١٢].

ثانيًا: معاني مفردات هذه الآيات:

الكلمة	معناها
﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾	بمعجزاتنا (كالعصا واليد التي تخرج بيضاء من غير سوء وغير ذلك).
﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾	جماعته- أشراف قومه.
﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾	فكفروا بها- فظلموا أنفسهم وغيرهم بسبب كفرهم بها.
﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾	جزاء المفسدين- آخر أمر المفسدين.
﴿حَقِيقٌ﴾	جديرٌ- حريصٌ- واجبٌ عليَّ- حقٌّ عليَّ.
﴿بِبَيِّنَةٍ﴾	بحجة مظهرة لصدقي.
﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾	اتركهم معي حتى نخرج من أرضك.
﴿بِـَٔايَةٍ﴾	بحجةٍ- بدلالة- بمعجزة.
﴿مُّبِينٌ﴾	تتبين لمن يراها أنها حية- واضح أنه ثعبان- مظهرٌ لقدرة الله ولصدقي.
﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾	أخرج يده.
﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾	لمن نظر إليها من الناس.
﴿ٱلْمَلَأُ﴾	الأشراف والوجهاء والمستشارون وعلية القوم.
﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾	بِمَ تشيرون؟

الكلمة	معناها
﴿أَرْجِهْ﴾	أخِّره – أمهله – احبسه.
﴿وَأَخَاهُ﴾	يعنون: هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ.
﴿الْمَدَائِنِ﴾	المُدن.
﴿حَاشِرِينَ﴾	جمع حاشر، وهو: الذي يجمع الناس ويحشرهم – جامعين يجمعون الناس، وقيل: المراد –هنا–: الشُّرطة الذين يذهبون لإحضار الناس.

ثالثًا: المعنى الإجمالي للآيات المباركات، مع بيان المشهد وإيضاحه:

أقول، وبالله التوفيق.

المعنى إجمالاً، والله أعلم بمراده.

ثم بعثنا من بعد هذه الأمم التي أهلكناها، والقرى التي أفنيناها، كقوم عادٍ وثمود، وكقوم لوط وشعيب وغير هذه القرى المكذبة، بعثنا بعدها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كليم الله عَزَّ وَجَلَّ مؤيدًا بالآيات والمعجزات الدالة على صدقه وعلى أنه رسولٌ من عند الله عَزَّ وَجَلَّ مؤيدًا بالآيات والمعجزات الدالة على صدقه وعلى أنه رسولٌ من عند الله عَزَّ وَجَلَّ كالعصا واليد وغير ذلك بعثناه إلى فرعون المتكبر المتعالي الذي افترى كذبًا وزورًا وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾، وكذا جماعته المتبعين له على ضلاله، الذين استخفهم فأطاعوه، فكفر فرعون وكفرت جماعته بالآيات التي جاءهم بها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكذبوا بها تكذيبًا، وعاندوا عنادًا، فانظر إلى مآل أمرهم وما حلَّ بهم، فلقد أغرقهم الله عَزَّ وَجَلَّ جميعًا في البحر.

وهكذا عاقبة أهل الفساد، ينتقم الله منهم إما في الدنيا بعاجل عقابه، أو يؤخر لهم العذاب في الآخرة.

ثم، وبعد هذا الإجمال يأتي التفصيل فيقول تعالى ذِكره: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم

﴿بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف:١٠٤-١٠٥].

ومفاد ذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ لما أرسل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رسولًا، والتقى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بفرعون أخبره بأن الله عَزَّوَجَلَّ اختاره واصطفاه لرسالته، فقال لفرعون- وهو ملك مصر آنذاك-: ﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أرسلني الله عَزَّوَجَلَّ الذي هو خالق كل شيءٍ ورب كل شيء.

ويدخل فيه السموات والأرض وما بينهما من إنس وجن وسائر المخلوقات، جديرٌ بي، وواجبٌ عليَّ، وقد أرسلني الله عَزَّوَجَلَّ أن أكون صادقًا فيما أنقله عن الله عَزَّوَجَلَّ، وها أنا صادقٌ وأقول لكم: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهي دلالات وبراهين وحجج على صدقي فيما أقول

ومعنى قوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف:١٠٥].

أي: جديرٌ، وحقَّ عليَّ، وكذا فإني حريصٌ على أن لا أقول على الله إلا الحق.

ودلَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على صدقه في دعوته وأنه رسول من عند الله فقال: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٠٥] بحجة واضحة دالة على صدقي، وهي العصا واليد، ثم طلب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من فرعون طلبًا فقال: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

دعهم لي، دع لي قبيلتي، أخرج بهم من بلادك ونرحل عنها، ولا تستعبدهم فإنهم من نسل نبي كريم وهو يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأطلقهم من أسرك وقهرك واتركهم يعبدون الله عَزَّوَجَلَّ.

فحينئذٍ طلب منه فرعون الحجج والبيِّنات فقال: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾، أي: بمعجزةٍ دالة على صدقك فيما تقول فبيِّنها لنا وأظهرها لنا ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

فيما تدعيه، فإني لست بمصدقك ولا مطيعك فيما طلبت، فإن كان عندك

حججٌ وبراهين فأتِ بها إن كنت صادقًا فيما ادعيت!!

فحينئذٍ، ولما طُلب من موسى عليه السلام دليلٌ على نبوته ورسالته ألقى عصاه فتحولت إلى حية ذَكر عظيمة هائلة واضحة أنها ثعبان عظيم، فكانت تلك آية عظيمة ودلالة على نبوَّة موسى عليه السلام.

وكذلك فإن موسى عليه السلام أخرج يده ونزعها من جيبه- أي: من فتحة الصدر- فخرجت يده بيضاء لمن نظر إليها شديدة البياض ناصعة، وموسى عليه السلام كان آدم-أي: أسمر- ولكن اليد خرجت هكذا بيضاء دون مرضٍ ودون آفة ولا بَرَص.

هذا، وفي حديث الفتون الطويل عن ابن عباس[1] قال: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ ﴾ فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون، فلما رأى فرعون أنها قاصدة إليه اقتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه، ففعل.

قلت (مصطفى): فماذا كان من فرعون وقومه أمام هذه المعجزات الباهرات والآيات الواضحات والدلالات الظاهرات!!!

وماذا كان من أشراف القوم ووجهائهم؟!؟

لقد قال الأشراف والوجهاء لبعضهم البعض، وقالوا لفرعون أيضًا: إن موسى- بما جاء به من العصا، واليد- ساحرٌ عليم بالسحر يُخيل الأشياء للناس على غير حقيقتها ويسحر أعينهم أن يجعلها ترى الأمور على غير وجهها الصحيح، فيجعلهم يرون الأسمر أبيض (كاليد) فقد كانت يده سمراء، ويجعلهم يرون العصا حية، وقد جاء بهذا الذي جاء به لتمكين بني إسرائيل من البلاد وطردكم منها وإزالتكم عن السيطرة عليها فما الذي تشيرون به في شأن

---

(١) **صحيح موقوف:** أخرجه أبو يعلى الموصلي (٥/ ١٠) بسندٍ صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما.

هذا الرجل!

أي: قال الملأ وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون، موافقين لقول فرعون فيه، بعد ما رجع إليه روعه، واستقر على سرير مملكته، بعد ذلك قال للملأ حوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فوافقوه وقالوا كمقالته، وتشاوروا في أمره، وماذا يصنعون في أمره؟ وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته، وظهور كذبهم وافترائهم؟ وتخوفوا أن يستميل الناس إليه بسحره فيما يعتقدون؛ فيكون ذلك سببًا لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم، والذي خافوا منه وقعوا فيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾.

أعود فأقول: لقد كان من اللائق بفرعون ووجهاء قومه وأشرافهم أن يؤمنوا بما جاء به موسى عليه السلام ويصدقوا به، ولكنهم وصفوا ذلك بالسحر واتهموا موسى عليه السلام بأنه يريد أن يُخرج قوم فرعون من البلاد ويطردهم منها!!!

هذا، والأرض المذكورة في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾[الأعراف:١١٠]

الأرض هي أرض مصر.

وإخراجهم منها بأحد أمرين:

الأول: أن يطردهم منها إلى غيرها.

الثاني: أن يجعل السيادة لبني إسرائيل عليهم فيكون الإسرائيليون سادة، ولهم الكلمة في البلاد، ومن دونهم تحت أيديهم.

أما قول: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف:١١٠].

فلأهل العلم في قائله وجهان:

أحدهما: أن قائل ذلك فرعون قاله لقومه، فلما أخبروه بقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ سألهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي: بأي شيء تشيرون عليَّ أن أفعل!

والقول الثاني: أن قائل: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ هم الملأ من قوم فرعون؛ وذلك لأن الكلام كلامهم والخطاب خطابهم، أما قولهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ بصيغة الجمع، فذلك-والله أعلم- تعظيم منهم لفرعون فيخاطبونه بخطاب الجماعة.

هذا، وعلى القول الأول، أن قائل: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف:١١٠] هو فرعون، قاله يستشير قومه ماذا يصنع مع موسى وهارون عليهما السلام؟!

فأجابوه وأشاروا عليه –لما شاورهم– في أمر نبي الله موسى عليه السلام، وأمر أخيه هارون عليه السلام، قالوا: احبسه واحبس أخاه إلى أن ترسل الشُّرط يجمعون لك السحرة من عموم مدن مصر.

وقيل: المعنى: أخِّره وأخِّر أخاه ولا تعاقبهما حتى ترسل الشُّرط إلى مدائن مصر يأتونك بالسحرة المهرة لدحض حجته، والله أعلم.

سياقٌ آخر للقصة وبيان للمشهد من سورة يونس عليه السلام

أولاً: ذِكر الآيات من سورة يونس في هذا الصدد:

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس:٧٥-٨٣].

ثانيًا: معاني مفردات هذه الآيات:

الكلمة	معناها
﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾	أشراف قومه.
﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾	بحججنا وبراهيننا وأدلتنا.
﴿مُّبِينٌ﴾	مظهرٌ – موضحٌ – ظاهرٌ واضحٌ.
﴿وَلَا يُفْلِحُ﴾	لا يظفر بمطلوبه ولا ينجو من مرهوبه.
﴿لِتَلْفِتَنَا﴾	لتصرفنا.
﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾	العظمة والسلطان والوجاهة والرئاسة.
﴿سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾	سيمحوه – سيزيله – سيبين فساده.
﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾	يظهر الله الحق ويقرره.
﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾	بأمره وقدرته وكلماته التي قضاها وتكلَّم بها من قبل.
﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾	قليل من قومه – شبابٌ من قومه من بني إسرائيل.
﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾	أشراف قومهم.
﴿يَفْتِنَهُمْ﴾	يصرفهم عن دينهم.
﴿لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	لمستكبرٍ في الأرض مفسدٌ فيها.
﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾	المتجاوزين للحد في الذنوب والظلم.

وعن معنى الآيات إجمالاً، فأقول، وبالله التوفيق:

المعنى – والله أعلم –: ثم بعثنا من بعد الرسل الذين أرسلناهم بعد نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أرسلنا بعدهم موسى وهارون ابني عمران عَلَيْهِمَا السَّلَامُ إلى فرعون، وهو الطاغية المعروف الذي كان يحكم مصر في ذاك الزمان، وأرسلناهما إلى ملئه أيضًا، وهم أشراف أهل مصر آنذاك، وأيَّدنا موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بآياتنا، بحججنا الدالة على قدرتنا والدالة على وحدانيتنا، والدالة على صدق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وصدق أخيه هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن هذه الآيات وتلك الحجج، الآيات التسع التي قال تعالى في شأنها: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ...﴾ [الإسراء: ١٠١]

والتي من أعظمها العصا التي تتحول إلى حية تسعى والتي انفلق بها البحر والتي انفجر بها الحجر، واليد التي يُدخلها جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، فاستكبر فرعون والملأ من قومه وبطروا الحق وجحدوه ووصفوا موسى عليه السلام بالسحر وتوعدوه وتهددوه بالقتل، وكانوا قبل مجيئه لهم وبعد مجيئه من أهل الإجرام والشر والفساد، الذين يجترمون الجرائم والكبائر والآثام، وازداد جُرمهم بتكذيبهم موسى عليه السلام، بل وبتعاليهم على الله، إذ قال فرعون: أنا ربكم الأعلى، وقال: ما علمت لكم من إله غيري.

لقد استمروا في وصف موسى عليه السلام بالسحر!!

واتهموه بأنه جاء لصرف الناس عن دينهم ودين آبائهم وأجدادهم!!

اتهموه بأنه يريد الرياسة والوجاهة والكبرياء في الأرض!!

وأصروا على كفرهم وتكذيبهم.

قال الله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يونس:٧٦-٧٨].

والمعنى – والله أعلم-: فلما جاء فرعون وملأه الحقُّ من عندنا، الحجج الواضحات والدلالات البينات الجليات الظاهرات الباهرات والمعجزات الواضحات الدالات على صدق موسى وهارون عليهما السلام، والتي منها العصا واليد، والتي منها البرهان الساطع الواضح من عند الله، ما كان جواب فرعون وقومه إلا أن قالوا إن هذا الذي جئت به يا موسى سحرٌ موضحٌ ومظهر أنك ساحر، وأيضًا إنه لسحرٌ ظاهر واضح، قال موسى عليه السلام رادًّا عليهم: أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا؟ والمعنى: أتقولون للحق لما جاءكم سحرٌ. أسحرٌ هذه المعجزات الواضحات والآيات البينات الظاهرات ألا فاعلموا أنه لا يفلح الساحرون لا يفوزون بمطلوبٍ ولا ينجون من مرهوب، ولا يدركون أمنًا ولا أمانًا.

فقالوا حينئذٍ متمادين في غيهم: أجئتنا يا موسى بالذي جئتنا به لتصرفنا عن عبادة ما وجدنا آباءنا يعبدونه، وتكون لك ولأخيك هارون العظمة والسلطة والرئاسة والوجاهة والريادة في الأرض، قيل: أرض مصر، وقيل عمومًا. وعلى كل حال فما نحن لكما بمصدقين ولا بمقرين لكما على صدق ما جئتما به.

وبدأ فرعون يجمع جُموعَه من السحرة!!

من أَمهر السحرة وأعلمهم بالسحر!!

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس:٧٩].

قال لقومه، قال للملأ منهم: ائتوني بكل ساحر له علمٌ وخبرةٌ بالسحر!!

فاجتمع لفرعون أمهر السحرة في مصر وأعظمهم خبرة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس:٨٠-٨٢].

لقد حضر السحرة من كل مكان وهنالك ساوموا فرعون قائلين – كما في موطن آخر أئن لنا لأجرًا إن كنا نحن الغالبين قال: نعم وإنكم إذن لمن المقربين، فقالوا لموسى عليه السلام: إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى، فقال لهم موسى عليه السلام: بل ألقوا أنتم أولًا، وهنا قال لهم ألقوا أي: العصى التي تريدون أن تلقوها والحبال التي تريدون إلقاءها وغير ذلك مما تريدون إلقاءه، فألقوا حبالهم وعصيهم فخيل لموسى عليه السلام أنه حيات تسعى، فثبته الله عز وجل لما أوجس في نفسه خيفة موسى، وبشره الله بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه:٦٨]، فهاهنا قال لهم موسى عليه السلام: لما ثبته الله عز وجل، ما جئتم به، أي: ما صنعتموه من إلقاء الحبال والعصي وتحولها في أعين الناس إلى حيات تسعى، هو السحر بعينه وأنتم ما صنعتم إلا أنكم سحرتم أعين الناس واسترهبتموهم، وإن الله عز وجل سيظهر بطلان هذا السحر الذي صنعتموه وسيبين حقيقة الأمر، ولما كنتم

قد جئتم للإفساد في الأرض ولسحر أعين الناس ولتخويفهم وجئتم لإبطال حجج الله عَزَّوَجَلَّ الدالة على وحدانيته، جئتم لتعاطي الأجر على باطلكم جئتم لمناصرة من يقول: أنا ربكم الأعلى، ويقول: يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري! وأي فساد أعظم من هذا فمن كان هذا عمله وكان هكذا سعيه فإن الله عَزَّوَجَلَّ لا يوفقه ولا يبارك في سعيه بل يبطل سعيه ويحبط عمله، وهكذا كل مفسدٍ في الأرض كل عامل فيها بمعصية الله لا يبارك في عمله.

أما الحق وأهله فإن الله ناصره وناصر أهله، فقوله: ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾[الشورى:٢٤] يظهر الله الحق ويعليه بكلماته التي قضاها وبأوامره التي يأمره بها، وأمره إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون، ولو كره ذلك أهل الإجرام فإن أمر الله عَزَّوَجَلَّ نافذٌ وواقع وإن رغمت أنوف أهل الإجرام.

وهل آمنت بنوا إسرائيل بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

قال تعالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

المعنى – والله أعلم-: فما اتبع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وصدقه وأقرَّه على ما جاء به إلا ذرية من قومه، قيل: المراد قليل من قومه، وقيل: شبابٌ من قومه من بني إسرائيل، وثمَّ قولٌ آخر ضعيف، وهو أن المراد بقوله: ﴿مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ أي: من قوم فرعون كمؤمن آل فرعون وآسية امرأة فرعون وخازن فرعون، وامرأة خازن فرعون، وهؤلاء وإن كانوا آمنوا إلا أنهم ليسوا المعنيين بقوله: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ بل المعنى بها، والله أعلم، قوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أما قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ ﴾ أي: آمنوا وهم متخوِّفون من فرعون ﴿وَمَلَإِيْهِمْ ﴾ أي: أشراف قومهم أن يفتنهم، أي: أن هؤلاء القلة الذين آمنوا بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ آمنوا وهم متخوِّفون أن يعذبهم فرعون، ويُعذبهم أشراف قومهم كي يصرفوهم عن الإيمان بالله وحده لا شريك له.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مستكبر فيها بغير الحق ساع فيها بالفساد والشر.

﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين الحد في الطغيان والكفر والتمرد والعصيان.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات، إلا قليل من قوم فرعون، من الذرية -وهم الشباب - على وجل وخوف منه ومن مَلَئه، أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر؛ لأن فرعون كان جبارًا عنيدًا مسرفًا في التمرد والعتوّ، وكانت له سَطْوة ومَهابة، تخاف رعيته منه خوفًا شديدًا.

واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية: أنها من بني إسرائيل لا من قوم فرعون، لعود الضمير على أقرب المذكورين.

وفي هذا نظر؛ لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب وأنهم من بني إسرائيل، فالمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ واستبشروا به، وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة، وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه؛ ولهذا لما بلغ هذا فرعون حَذَر كل الحذر فلم يُجْد عنه شيئًا.

ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى، و﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]. وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى، وهم بنو إسرائيل؟.

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ أي: وأشراف قومهم أن يفتنهم، ولم يكن في بني إسرائيل من يخاف منه أن يَفتِنَ عن الإيمان سوى قارون، فإنه كان من

قوم موسى، فبغى عليهم؛ لكنه كان طاويًا إلى فرعون، متصلًا به، مُتعلقًا بحباله ومن قال: إن الضمير في قوله: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ عائد إلى فرعون، وعظم الملك من أجل اتباعه أو بحذف «آل» فرعون، وإقامة المضاف إليه مقامه -فقد أبعد، وإن كان ابن جرير قد حكاهما عن بعض النحاة. ومما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ أي: شباب من بني إسرائيل، صبروا على الخوف، لما ثبت في قلوبهم الإيمان.

﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ﴾ عن دينهم ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: له القهر والغلبة فيها، فحقيق بهم أن يخافوا من بطشته.

﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿إِنَّهُۥ﴾ كان ﴿ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المتجاوزين للحد، في البغي والعدوان.

والحكمة -والله أعلم- بكونه ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه، أن الذرية والشباب، أقبل للحق، وأسرع له انقيادًا، بخلاف الشيوخ ونحوهم، ممن تربى على الكفر فإنهم -بسبب ما مكث في قلوبهم من العقائد الفاسدة- أبعد عن الحق من غيرهم.

مزيدٌ من الإيضاح لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ﴾.

[يونس:٨٣]

أقول، وبالله التوفيق:

لأهل العلم أقوال في ذلك:

أحدها: علية القوم من بني إسرائيل الذين لم يؤمنوا.

الثاني: أن المراد بالملأ علية قوم مصر من حاشية فرعون وتقدمت أقوالٌ في ذلك.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ لأنه كان مسلطًا عليهم عاتيًا ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ ولم يقل وملئه ؛ وعنه ستة أجوبة:

أحدها: أن فرعون لما كان جبارًا أخبر عنه بفعل الجميع.

الثاني: أن فرعون لما ذكر علم أن معه غيره، فعاد الضمير عليه وعليهم ؛ وهذا أحد قولي الفراء.

الثالث: أن تكون الجماعة سميت بفرعون مثل ثمود.

الرابع: أن يكون التقدير: على خوف من آل فرعون ؛ فيكون من باب حذف المضاف مثل: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف: ٨٢] وهو القول الثاني للفراء. وهذا الجواب على مذهب سيبويه والخليل خطأ، لا يجوز عندهما قامت هند، وأنت تريد غلامها.

الخامس: مذهب الأخفش سعيد أن يكون الضمير يعود على الذرية، أي: ملأ الذرية ؛ وهو اختيار الطبري.

السادس: أن يكون الضمير يعود على قومه. قال النحاس: وهذا الجواب كأنه أبلغها.

وصية موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه من بني إسرائيل

لقد تقدم – في سورة الأعراف – أن بني إسرائيل شكوا إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ما يلقونه من عنت وبلاء ومشقة وأذى من فرعون، سواء قبل مجيء موسى إليهم أو بعد مجيئه إليهم، وأوصاهم بالصبر قائلاً استعينوا بالله واصبروا، وبشرهم بالعاقبة الحسنة والاستخلاف في الأرض كما تقدم.

وهنا يوصيهم أيضًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بالتوكل على الله وحسن الاعتماد عليه، فيستجيبون له ويسألون الله الثبات والسلامة والنجاة والعافية!

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يونس:٨٤-٨٦].

والمعنى – والله أعلم –: وقال موسى عليه السلام لقومه من بني إسرائيل يا قوم إن كنتم صدقتم بوحدانية الله وقدرته فاعتمدوا عليه وحده واطلبوا منه العون والتجئوا إليه كي يكشف ما بكم من ضرٍّ إن كنتم أسلمتم وأقررتم بوحدانيته وخضعتم لأمره واستسلمتم ﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ اعتمدنا على الله وسألوا ربهم قائلين يا ربنا سلمنا من الكفار والظالمين واحفظنا من فتنتهم لنا ولا تجعلنا سببًا أيضًا في فتنتهم، أي: لا تسلطهم علينا فينتصروا علينا فيفتنوا بذلك، وكذا لا تسلطهم علينا فيصرفوننا عن ديننا وسلمنا واحفظنا وأنقذنا برحمتك من أهل الكفر والشر والفساد وذلك أن الإسرائيليين كانوا مستعبدين لدى فرعون وقومه، وكان – كما هو معلوم – يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ويستضعف رجالهم. فسألوا الله النجاة من هذا كله.

وبنحو ذلك قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل موسى نبيِّه لقومه: يا قوم إن كنتم أقررتم بوحدانية الله، وصدقتم بربوبيته ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ ﴾، يقول: فبه فثقوا، ولأمره فسلموا، فإنه لن يخذل وليّه، ولن يسلم من توكل عليه ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾، يقول: إن كنتم مذعنين لله بالطاعة، فعليه توكلوا.

يقول تعالى ذكره: فقال قوم موسى لموسى: ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾، أي: به وثقنا، وإليه فوَّضنا أمرنا.

وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، يقول جل ثناؤه مخبراً عن قوم موسى أنهم دعوا ربهم فقالوا: يا ربنا لا تختبر هؤلاء القوم الكافرين، ولا

تمتحنهم بنا! يعنون قوم فرعون.

وقد اختلف أهل التأويل في المعنى الذي سألوه ربَّهم من إعاذته ابتلاء قوم فرعون بهم.

فقال بعضهم: سألوه أن لا يظهرهم عليهم، فيظنُّوا أنهم خيرٌ منهم، وأنهم إنما سُلِّطوا عليهم لكرامتهم عليه وهوان الآخرين.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لا تسلطهم علينا فيفتنونا.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن القوم رغبوا إلى الله في أن يُجيرهم من أن يكونوا محنة لقوم فرعون وبلاءً، وكلُّ ما كان من أمر كان لهم مصدَّة عن اتباع موسى والإقرار به، وبما جاءهم به، فإنه لا شك أنه كان لهم «فتنة»، وكان من أعظم الأمور لهم إبعادًا من الإيمان بالله ورسوله. وكذلك من المصدَّة كان لهم عن الإيمان: أن لو كان قوم موسى عاجلتهم من الله محنةٌ في أنفسهم، من بلية تنزل بهم، فاستعاذ القوم بالله من كل معنى يكون صادًّا لقوم فرعون عن الإيمان بالله بأسبابهم.

ويقول تعالى ذكره[1]: ونجِّنا يا ربنا برحمتك، فخلِّصنا من أيدي القوم الكافرين، قوم فرعون، لأنهم كان يستعبدونهم ويستعملونهم في الأشياء القَذِرة من خدمتهم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى مخبرًا عن موسى أنه قال لبني إسرائيل: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ أي: فإن الله كاف من توكل عليه، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

---

(١) يعني في ذكر قولهم.

وكثيرًا ما يقرن الله بين العبادة والتوكل، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٩]، وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]

وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك، فقالوا: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا تظفرهم بنا، وتسلطهم علينا، فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل، فيفتنوا بذلك. هكذا روي عن أبي مِجْلَز، وأبي الضُّحى.

وقال ابن أبي نَجِيح وغيره واحد، عن مجاهد: لا تعذبنا بأيدي قوم فرعون، ولا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق ما عذبوا، ولا سُلِّطنا عليهم، فيفتنوا بنا.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عُيَيْنَةَ، عن ابن نَجِيح[1]، عن مجاهد: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٥﴾ لا تسلطهم علينا، فيفتنونا.

وقوله: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ﴾ أي: خلصنا برحمة منك وإحسان، ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: الذين كفروا الحق وستروه، ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك.

وصية الله عَزَّ وَجَلَّ لموسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وأمره بتبشير المؤمنين

قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨٧﴾ [يونس:٨٧].

المعنى ـ والله أعلم ـ: وأوحينا إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وإلى أخيه هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ أن اتخذا، ابنيا واشتريا لقومكما من بني إسرائيل، بيوتًا مستقرة واجعلوا بيوتكم

(١) رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد فيها مقال (في التفسير).

قبلة، قيل: أمروا أن يصلوا في البيوت لما كان فرعون يؤذيهم إذا ذهبوا إلى المساجد فلما خافوا رخص لهم في الصلاة في البيت.

وقيل: اجعلوا بيوتكم قبل بعض.

وقيل: أُمروا بالإكثار من الصلاة دفعًا للمصائب.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وكأن هذا -والله أعلم- لما اشتد بهم البلاء من قبَل فرعون وقومه، وضيقوا عليهم، أمروا بكثرة الصلاة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ١٥٦]. وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. أخرجه أبو داود. ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: بالثواب والنصر القريب.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ﴾ أي: حافظوا عليها في أوقاتها وبأركانها، وبشر المؤمنين بأن لهم الحسنى، لهم الجنة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وأوحينا إلى موسى وأخيه أن اتخذا لقومكما بمصر بيوتًا. يقال منه: «تبوَّأ فلان لنفسه بيتًا»، إذا اتخذه. وكذلك «تبوَّأ مصْحفًا»، إذا اتخذه، «وبوأته أنا بيتًا»: إذا اتخذته له.

﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، يقول: واجعلوا بيوتكم مساجدَ تصلُّون فيها.

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾.

فقال بعضهم بنحو الذي قلنا فيه.

وقال آخرون: معنى ذلك: واجعلوا مساجدكم قِبَل الكعبة.

وقال آخرون: معنى ذلك: واجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضًا.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، يقول تعالى ذكره: وأدوا الصلاة المفروضة بحدودها في أوقاتها.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، يقول جل ثناؤه لنبيه عليه الصلاة والسلام: وبشر مقيمي الصلاة المطيعي الله، يا محمد، المؤمنين بالثواب الجزيل منه.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال أكثر المفسرين: كان بنو إسرائيل لا يصلون إلا في مساجدهم وكنائسهم وكانت ظاهرة، فلما أرسل موسى أمر فرعون بمساجد بني إسرائيل فخربت كلها ومنعوا من الصلاة؛ فأوحى الله إلى موسى وهارون أن اتخذوا لبني إسرائيل بيوتًا بمصر، أي مساجد، ولم يرد المنازل المسكونة. هذا قول إبراهيم وابن زيد والربيع وأبي مالك وابن عباس وغيرهم. وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير أن المعنى: واجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضًا. والقول الأول أصح؛ أي: اجعلوا مساجدكم إلى القبلة؛ قيل: بيت المقدس، وهي قبلة اليهود إلى اليوم؛ قاله ابن بحر. وقيل: الكعبة. عن ابن عباس قال: وكانت الكعبة قبلة موسى ومن معه، وهذا يدل على أن القبلة في الصلاة كانت شرعًا لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولم تخل الصلاة عن شرط الطهارة وستر العورة واستقبال القبلة؛ فإن ذلك أبلغ في التكليف وأوفر للعبادة. وقيل: المراد صلوا في بيوتكم سرًّا لتأمنوا؛ وذلك حين أخافهم فرعون فأمروا بالصبر واتخاذ المساجد في البيوت، والإقدام على الصلاة، والدعاء إلى أن ينجز الله وعده، وهو المراد بقوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ [الأعراف: ١٢٨] الآية. وكان من دينهم أنهم لا يصلون إلا في البيع والكنائس ما داموا على أمن، فإذا خافوا فقد أذن لهم أن يصلوا في بيوتهم. قال ابن العربي: والأول أظهر القولين؛ لأن الثاني دعوى.

قلت: قوله: «دعوى» صحيح ؛ فإن في الصحيح قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**» وهذا مما خص به دون الأنبياء ؛ فنحن بحمد الله نصلي في المساجد والبيوت، وحيث أدركتنا الصلاة.

دعاء موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ على فرعون واستجابة الله عَزَّ وَجَلَّ هذا الدعاء

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس:٨٨-٨٩]

معاني المفردات:

الكلمة	معناها
﴿ ٱطْمِسْ ﴾	أهلكها – أتلفها – حوَّلها إلى حجارة.
﴿ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾	اجعلها قاسية لا تؤمن.
﴿ سَبِيلَ ﴾	طريق.

وعن المعنى الإجمالي: فأقول، وبالله التوفيق:

وبعد أن رأى نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من فرعون ما رأى من التكذيب والجحود والعناد والسخرية والاستهزاء والتهديد بالقتل والسجن والتشريد وغير ذلك، وكذا رأى من قوم فرعون أيضًا عندئذٍ دعا نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسأل ربَّه عَزَّ وَجَلَّ قائلاً:

﴿رَبَّنَا﴾ أي: يا ربنا ﴿إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: وسعت عليهم في الدنيا توسعة كبيرة، فعندهم من الذهب وسائر الحلي ما قد رزقتهم إياه يتزينون به ويتحلون به وكذا آتيتهم أفخر المراكب وأحسن البيوت، وأجمل الثياب، وكذا آتيتهم من صنوف المال أصنافًا واسعة من ذهب وفضة وغير ذلك، ومن الماشية والحرث وغير ذلك ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن

سَبِيلِكَ ﴾ أي: يا ربنا ما استفادوا من هذه النعم والأرزاق التي رزقتهم إياها هداية وتقًى وصلاحًا بل تمادوا في كفرهم وأضلوا الناس عن طريقك المستقيم، فصرفوا الناس عن سلوك طريقك الموصل إلى مرضاتك وجناتك.

وقيل: المعنى يا ربنا إنك أعطيتهم ما أعطيتهم فتنة لهم كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ﴾ فظنوا أنهم على حق بتوسعة الله عليهم، فيا رب ها هم قد فتنوا وصُرفوا عن الحق فانتقم منهم وثمَّ وجوه أُخر، والوجه الأول أراه أقوى، والله أعلم.

ثم إن نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما رأى تماديهم على الكفر دعا عليهم قائلًا: ربنا اطمس على أموالهم، قيل: امحها فطمست معالم الأموال والعُملات، وقيل: تحولت إلى حجارة وكذا تحول سكرَّهم إلى حجارة، وقيل المعنى: معنى ﴿ٱطْمِسْ﴾ أي: أهلكها ودمِّرها يا رب.

أما قوله: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: اطبع عليها واجعلها قاسية لا تؤمن حتى يأتيها العذاب، وقيل: المراد به الغرق. والله أعلم.

فأجاب الله عَزَّ وَجَلَّ دعاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ودعاء هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيبدو أنه كان يدعو هو الآخر ومن ثمَّ قال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾.

وقال بعض أهل العلم: إن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يدعو وهارون عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يؤمن أي يقول: آمين، ومن ثمَّ قال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾.

أما قوله: ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ أي: على ما أمركما الله به.

﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: ولا تسلكوا طريق أهل الجهل وقلة العلم بالله عَزَّ وَجَلَّ وشرائعه وأحكامه.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وقال موسى يا ربَّنا إنك أعطيت فرعون وكبراء قومه وأشرافهم -وهم «الملأ» - ﴿زِينَةً﴾، من متاع الدنيا وأثاثها ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ من

أعيان الذهب والفضة ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾، يقول موسى لربه: ربنا أعطيتهم ما أعطيتهم من ذلك ليضلُّوا عن سبيلك.

وأورد الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقوالاً ثم قال:

والصواب من القول في ذلك عندي أنها «لام كي» - ومعنى الكلام: ربنا أعطيتهم ما أعطيتهم من زينة الحياة الدنيا والأموال لتفتنهم فيه، ويضلوا عن سبيلك عبادَك، عقوبة منك. وهذا كما قال جل ثناؤه: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦-١٧].

وقوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، هذا دعاء من موسى، دعا الله على فرعون وملئه أن يغير أموالهم عن هيئتها، ويبدلها إلى غير الحال التي هي بها، وذلك نحو قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾، [النساء: ٤٧]. يعني به: من قبل أن نغيرها عن هيئتها التي هي بها.

وأورد الطبري آثارًا عن التابعين مفادها أن أموالهم تحوَّلت إلى حجارة، وكذا زروعهم.

وقال الطبري: وقال آخرون: بل معنى ذلك أهلكها.

وقال في تفسير قوله: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال: واطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح بالإيمان.

وقال في قوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ معناه: فلا يصدقوا بتوحيد الله ويقروا بوحدانيته حتى يروا العذاب الموجع.

ثم قال: وأما قوله: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ فإن ابن عباس كان يقول: معناه: حتى يروا الغرق.

وقال الطبري في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

وهذا خبر من الله عن إجابته لموسى ﷺ وهارون دعاءهما على فرعون

وأشـراف قومـه وأمـوالهم. يقـول جـل ثنـاؤه: ﴿قَالَ﴾ الله لهمـا: ﴿قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾، في فرعون وملئه وأموالهم.

فإن قال قائل: وكيف نسبت «الإجابة» إلى اثنين و«الدعاء»، إنما كان من واحد؟

قيل: إن الداعي وإن كان واحدًا، فإن الثاني كان مؤمِّنًا، وهو هارون، فلذلك نسبت الإجابة إليهما، لأن المؤمِّن داعٍ. وكذلك قال أهل التأويل.

وأما قوله: ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾، فإنه أمرٌ من الله تعالى لموسى وهارون بالاستقامة والثبات على أمرهما، من دعاء فرعون وقومه إلى الإجابة إلى توحيد الله وطاعته، إلى أن يأتيهم عقاب الله الذي أخبرهما أنه أجَابَهما فيه.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾، يقول: ولا تسلكانّ طريق الذين يجهلون حقيقة وعدي، فتستعجلان قضائي، فإن وعْدي لا خلف له، وإن وعيدي نازلٌ بفرعون وعذابي واقع به وبقومه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على فرعون وَمَلَئه، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين، ظلمًا وعلوًّا وتكبرًا وعتوًّا، قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ أي: من أثاث الدنيا ومتاعها، ﴿وَأَمۡوَٰلًا﴾ أي: جزيلة كثيرة، ﴿فِي﴾ هذه ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ -بفتح الياء -أي: أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم استدراجًا منك لهم، كما قال تعالى: ﴿لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ [طه: ١٣١]، وقرأ آخرون: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ بضم الياء، أي: ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيت هؤلاء هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم.

وأورد أقوالًا في تفسير قوله: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ مفادها أهلكها فأهلكها وحولها إلى حجارة وقال: وقوله: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ قال ابن

عباس: أي اطبع عليها، ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضبًا لله ولدينه على فرعون وملئه، الذين تبين له أنهم لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء كما دعا نوح عليه السلام فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧] ولهذا استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة، التي أمَّنَ عليها أخوه هارون، فقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾.

قال أبو العالية، وأبو صالح، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي، والربيع بن أنس: دعا موسى وأمَّنَ هارون، أي: قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون.

وقد يحتج بهذه الآية من يقول: «إن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة يُنزل منزلة قراءتها؛ لأن موسى دعا وهارون أمن».

وقال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ أي: كما أجيبت دعوتكما فاستقيما على أمري.

قال ابن جُرَيْج، عن ابن عباس: ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ فامضيا لأمري، وهي الاستقامة.

قال السعدي رحمه الله (تيسير الكريم الرحمن):

فلما رأى موسى، القسوة والإعراض من فرعون وملئه، دعا عليهم وأمن هارون على دعائه، فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ يتزينون بها من أنواع الحلي والثياب، والبيوت المزخرفة، والمراكب الفاخرة، والخدام، ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ عظيمة ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ أي: إن أموالهم لم يستعينوا بها إلا على الإضلال في سبيلك، فيضلون ويضلون.

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: أتلفها عليهم: إما بالهلاك، وإما بجعلها حجارة، غير منتفع بها ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قسها ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾. قال ذلك، غضبًا عليهم، حيث تجرؤوا على محارم الله،

وأفسدوا عباد الله، وصدوا عن سبيله، ولكمال معرفته بربه بأن الله سيعاقبهم على ما فعلوا، بإغلاق باب الإيمان عليهم.

مزيدٌ من الأقوال في تفسير قول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ [يونس:٨٨].

من الأقوال في ذلك أن اللام لام العاقبة:

أي فكانت العاقبة أنهم أضلوا عن سبيلك.

الثاني: أن المعنى إنك يا رب ما أعطيتهم الذي أعطيتهم لإضلال الناس ولكنهم أضلوهم يا رب فانتقم منهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ اختلف في هذه اللام، وأصح ما قيل فيها - وهو قول الخليل وسيبويه - أنها لام العاقبة والصيرورة؛ وفي الخبر «إن لله تعالى ملكًا ينادي كل يوم لدوا للموت وابنوا للخراب». أي لما كان عاقبة أمرهم إلى الضلال صار كأنه أعطاهم ليضلوا. وقيل: هي لام كي أي أعطيتهم لكي يضلوا ويبطروا ويتكبروا. وقيل: هي لام أجل، أي أعطيتهم لأجل إعراضهم عنك فلم يخافوا أن تعرض عنهم. وزعم قوم أن المعنى: أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا، فحذفت لا كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ [النساء: ١٧٦]. والمعنى: لأن لا تضلوا. قال النحاس: ظاهر هذا الجواب حسن، إلا أن العرب لا تحذف «لا» إلا مع أن؛ فموه صاحب هذا الجواب بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾. وقيل: اللام للدعاء، أي ابتلهم بالضلال عن سبيلك؛ لأن بعده: ﴿ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ﴾. وقيل: الفعل معنى المصدر أي إضلالهم كقوله عَزَّوَجَلَّ ﴿لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾ [التوبة: ٩٥] قرأ الكوفيون: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ بضم الياء من الإضلال، وفتحها الباقون.

بيان مجمل لدعوة موسى عليه السلام لفرعون من سورة الدخان

أولاً: ذِكر الآيات المباركات:

قال الله تعالى:

﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ
عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ
﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ ﴾.

ثانيًا: معاني مفردات الآيات المباركة:

الكلمة	معناها
﴿فَتَنَّا﴾	ابتلينا – اختبرنا
﴿أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾	ادفعوا إليَّ بني إسرائيل
﴿لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾	لا تستكبروا عن طاعته وعبادته – لا تفتروا على الله
﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾	بحجة واضحة بيِّنة تدل على صدقي ورسالتي
﴿عُذْتُ﴾	التجأت واستنجدت واستجرت
﴿تَرْجُمُونِ﴾	ترجموني بالحجارة – تقذفوني وتشتموني وتصفونني بما ليس فيَّ
﴿فَٱعْتَزِلُونِ﴾	لا تتعرضوا لي بأذى ولا مكروه

ثالثًا: المعنى الإجمالي:

يقول تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

المعنى، والله أعلم: ولقد ابتلينا واختبرنا قبل مشركي قريش قوم فرعون وجاءهم رسول كريم من عندنا وهو نبي الله موسى عليه السلام، فقال لهم: ادفعوا إليَّ بني إسرائيل الذين هم عشيرتي وقبيلتي الذين يعبدون الله عز وجل، ادفعوهم إلينا يا

آل فرعون وخلوا بيني وبينهم حتى أنصرف بهم وأترك لكم بلادكم كما في الآية الأخرى: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٧]، فالمراد بـ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ بنو إسرائيل، ثم قال لهم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ رسول من عند الله أمينٌ فيما أنقله لكم عن الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ يعني تعالى ذكره: ولقد اختبرنا وابتلينا يا محمد قبل مشركي قومك مثال هؤلاء قوم فرعون من القبط ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ يقول: وجاءهم رسول من عندنا أرسلناه إليهم، وهو موسى بن عمران صلوات الله عليه.

وقوله: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ يقول تعالى ذكره: وجاء قوم فرعون رسول من الله كريم عليه بأن ادفعوا إلي، ومعنى ﴿أَدُّوٓاْ﴾: ادفعوا إلي فأرسلوا معي واتبعون، وهو نحو قوله: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٧﴾ [الشعراء: ١٧]، فـ﴿أَنْ﴾ في قوله: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ﴾ نصب، وعباد الله نصب بقوله: ﴿أَدُّوٓاْ﴾ وقد تأوله قوم: أن أدوا إلي يا عباد الله، فعلى هذا التأويل عباد الله نصب على النداء.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون، وهم قبط مصر، ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ١٧﴾ يعني: موسى كليمه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾، كقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ٤٧﴾ [طه: ٤٧] .

وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٨﴾ أي: مأمون على ما أبلغكموه.

قلت مصطفى: أما قوله: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ١٩﴾ .

فمعناه، والله أعلم، وكان مما جاءهم به موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ طلبه منهم ألا يتعالوا على الله ولا يستكبروا عن طاعته وعبادته، فهذا قوله: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أما

قوله: ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾، أي: قد جئتكم بحجة قاطعة تشهد أني رسول من عند الله عَزَّوَجَلَّ، وهي الآيات التي أيَّد الله بها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كالعصا التي تتحول إلى حية تسعى واليد التي تخرج بيضاء من غير سوء...

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وجاءهم رسول كريم، أن أدوا إلي عباد الله، وبأن لا تعلوا على الله.

وعني بقوله: ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ أن لا تطغوا وتبغوا على ربكم، فتكفروا به وتعصوه، فتخالفوا أمره ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٩﴾ يقول: إني آتيكم بحجة على حقيقة ما أدعوكم إليه، وبرهان على صحته، مبين لمن تأملها وتدبرها أنها حجة لي على صحة ما أقول لكم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ أي: لا تستكبروا عن اتباع آياته، والانقياد لحججه والإيمان ببراهينه، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: ٦٠].

﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٩﴾ أي: بحجة ظاهرة واضحة، وهي ما أرسله الله به من الآيات البينات والأدلة القاطعات.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في «تيسير الكريم الرحمن»:

﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ بالاستكبار عن عبادته والعلو على عباد الله، ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٩﴾ أي: بحجة بينة ظاهرة وهو ما أتى به من المعجزات الباهرات والأدلة القاهرات.

قلت (مصطفى): أما قوله: ﴿وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ ٢٠﴾.

معناه: والله تعالى أعلم، أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لقومه: وإني استنجدت بربي خالقي وخالقكم ولجأت إليه مستجيرًا به كي لا ترجموني بالحجارة، وكي لا

ترجموني قذفًا وسبابًا وشتمًا.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ۝٢٠﴾ قال ابن عباس، وأبو صالح: هو الرجم باللسان وهو الشتم.

وقال قتادة: الرجم بالحجارة.

أي: أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم أن تصلوا إليَّ بسوء من قول أو فعل.

وذكر معانٍ أُخر للرجم منها الرجم بالحجارة، ومنها القتل.

وقال:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ما دلَّ عليه ظاهر الكلام، وهو أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ استعاذ بالله من أن يرجمه فرعون وقومه، والرجم قد يكون قولًا باللسان، وفعلًا باليد. والصواب أن يقال: استعاذ موسى بربه من كل معاني رجمهم الذي يصل منه إلى المرجوم أذى ومكروه، شتمًا كان ذلك باللسان، أو رجمًا بالحجارة باليد.

قلت (مصطفى): أما قوله: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ۝٢١﴾.

معناه: المعنى، والله أعلم، وإن لم تصدقوني بأني رسول من عند الله عَزَّ وَجَلَّ فلا تؤذونني وتتعرضوا لي.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ۝٢١﴾، أي: فلا تتعرضوا لي ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أن يقضي الله بيننا.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ۝٢١﴾ يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل نبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لفرعون وقومه: وإن أنتم أيها القوم لم تصدقوني على ما جئتكم به